عزيز نيسين

وحش طوروس



ترجمة: محمد مولود فاقي

الوطنية الجديدة

وحش طوروس

* وحش طوروس «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ٢٠٠١

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
* موافقة وزارة الإعلام: ٧٠٥١٦

عزيز نيسين

وحش طوروس

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية
Aziz nesin
Toros Canavari

ـ ١ ـ

وحش طوروس

عندما ربح (نوري باك يوراك) دعوى الإخلاء التي قدمها مالك البيت.. عمد الأخير إلى استعمال طرق ووسائل أخرى كي يُخلي المستأجر نوري من الشقة التي يسكنها. فأوحى إلى المستأجرين ساكني الطابق الأرضي أن يحدثوا جلبة وضوضاء مزعجتين.. حيث بدأ فوج من السكارى بالغناء والرقص والرفس، كي يقلقوا راحة عائلة (نوري) التي ربحت الدعوى، والتي لم يغمض لها جفن تلك الليلة. وأقبل مالك البناء يدقّ بابهم صبيحة ذلك اليوم.

كان السيد نوري مستلقياً على أريكة في زاوية المنزل.. يحاول النوم.. تغطي رأسه قبعة.. أما ثوب نومه فكان من قماش خفيف. أسرعت ابنته (غولاي) توقظه وهي مضطربة جداً.. وتخبره بمقدم مالك البناية:

ـ بابا.. لقد جاء صاحب البيت.

نهض السيد نوري وبدأت يداه ورجلاه ترتجفان خوفاً وهو الذي لم يؤذ طيلة حياته حتى نملة صغيرة. فأسرع ونادى ابنه الذي كان يستعد للامتحان.. وكأنه يطلب منه النجدة:

ـ متيـ يـ يـن..

دهش متين الذي كان طالباً في السنة الأخيرة بكلية الطب عندما رأى والده في حالة اضطراب وخوف شديدين.

ـ ماذا هناك يا أبي؟

أجابه وهو يتلعثم: السيد نوري

ـ أختك تقول إن صاحب البيت قد حضر..

فقالت زوجته السيدة (مهبارة):

ـ هذا حسن.. ليدخل.. أهلاً وسهلاً.. الرجل لن يأكلنا طبعاً.

همس السيد نوري:

ـ يأكلنا.. يأكلنا.. الرجل يملك خمس عمارات ضخمة.

التفتت السيدة مهبارة نحو ابنتها، وقالت:

ـ أدخليه يا غولاي.

دخل الشقة رجل قصير القامة.. بدين الجسم.. فقالت السيدة مهبارة:

ـ تفضلوا يا سيدي.

أما السيد نوري فقد كرر كلام زوجته، ولكن بصوت أخفض:

ـ تفضلوا يا سيدي..

جلس صاحب البناء وقال بسخرية لاذعة:

ـ كيف وجدتم العائلة التي انتقلت إلى الطابق الأرضي..؟ هل أنتم راضون عنها؟

قال متين:

ـ هذا لا يهمنا يا سيدي.. «ولا علاقة لنا بها».

كرر والده نفس الكلام ولكن بصوت أضعف:

ـ لا يهمنا. ولا يعنينا.. «ولا علاقة لنا بهم».

قال صاحب البناية:

ـ سنرى.. إن كان يعنيكم أم لا.. هذه هي الليلة الأولى.

وقف على رجليه وقال:

ـ لا تغتروا بأنفسكم كثيراً بأنكم ربحتم الدعوى. ستخرجون من هنا عاجلاً أم آجلاً، هل تفهمون؟.. ستخرجون.

قال السيد نوري:

ـ زاد الله من أموالك، وكثر خيراتك يا سيدي.. نحن نسكن هنا منذ ثمانية عشر عاماً.. وندفع لك الإيجار أولاً بأول.

قال صاحب العمارة:

ـ نعم.. تدفعون..! وما الذي تدفعونه؟ خمس غرف كبيرة.. وصالون كبير و (بانيو) ومطبخ واسع و (كوريدور) وغاز.. وتدفعون لي ثلاثمائة ليرة.. هل أنتم شركائي بمالي ولك...؟ هذه الشقة أعطيها لابن أبي بألف ليرة في الشهر.

قالت السيدة مهبارة:

ـ لو وجدنا منزلاً مناسباً لأخلينا لك الشقة فوراً.

قال زوجها:

ـ يا يا.. نعم.. نعم.. كنا سنخرج من هنا فوراً.

قال صاحب البناء:

ـ لن تجدوا حظيرة بهذا المبلغ الذي تدفعونه لي.. ولا منزلاً. هل تظنونني أحمقاً؟ لا خلاص لكم مني إلا بالخروج من هنا. «فلا يهزم الملحد إلا الملحد مثله». هل تعرفون ساكن الطابق الأرضي الجديد..؟ إنه رجل ذو سوابق يفوق عددها المائة والثمانية. قال لي بالحرف الواحد: «اترك هذا الأمر لي.. عندي مائة وثمان سابقة، فليكونوا مائة وتسعة». أتفهم معنى هذا الكلام..؟

قال متين:

ـ ماذا تريد أن تقول يعني؟

ـ مستقبلاً هو من سيتعامل معكم.. هذا الكلام يكفي ولن أزيد.

خرج صاحب البيت غاضباً وفمه يرغي ويزبد وهو يكيل الشتائم.

قالت السيدة مهبارة لزوجها:

ـ اذهب إلى المخفر وقدم شكوى بحق هذا الرجل.

لم يدخل السيد نوري مخفراً طوال حياته.. عندما تقول له.. المحكمة.. المخفر.. بوليس.. تأخذ يداه ورجلاه بالرجفان.

منذ تلك الليلة.. بدأت الأمور تكبر وتتشابك، فالقاطنون في الطابق الأرضي.. يقيمون القيامة ويقعدونها طوال الليل.. أصوات وضجيج.. لم يقف الأمر عند هذا الحد.. فقد عمد صاحب البيت إلى توطين عائلة أخرى في الطابق الأعلى للسيد نوري.. وهي.. أشد بلاء وإزعاجاً.. تستمر بالرقص طوال الليل.. وهكذا كانت القيامة تقوم كل ليلة. أما عائلة (باك يوراك) /الطيب القلب/. فقد كرهت حياتها وملّت العيش بين جماعة يرقصون على الأنغام التركية في الطابق الأرضي، وموسيقة الروك في الطابق العلوي.

قال متين لوالده الذي لم يستطع إرساله إلى المخفر مع كل الصعوبات التي تمر بهم:

ـ إذا لم تذهب إلى المخفر يا أبي.. سيعمد هؤلاء إلى إزعاجنا وسيجلسون على رؤوسنا.

وفي وقت متأخر من الليل صرخت مهبارة هانم.. بعد أن تحول رأسها إلى خزان وشيك الانفجار.. جراء (المامبو) الآتي من الأعلى، و (يا ليل) الصاعد من الأسفل.. صرخت بزوجها:

ـ الحق عليك يا سيد.. أتظن أن هؤلاء يفهمون بالمعروف؟ إذا لم ترفع

صوتك في وجوههم.. سيفجرون رؤوسنا.

قال السيد نوري:

ـ ماذا أفعل يعني؟ طبعاً لن أذهب وأتشاجر مع هؤلاء.. سيأتي يوم يتعبون فيه من كثرة الخبط واللبط.

قالت غولاي:

ـ السقف سيطبق على رؤوسنا يا أبي..

وأسرعت نحو الداخل.. وأضافت:

ـ اذهب وقدم شكوى إلى المخفر.

دخل متين إلى الغرفة حاملاً كتابه بيده وقال:

ـ قرأت سطراً أكثر من عشر مرات.. ولم أفهم منه شيئاً.. ليس صعباً على المرء أن يجن.. انظروا.. إن استمرت الأمور على هذه الحال سأرسب في صفي.. لقد وضعت قطناً في أذنيَّ.. ولم أستفد شيئاً.

كان الجميع يتهمون السيد نوري.. وكأنه هو المذنب.. فقالت السيدة مهبارة:

ـ لقد نفد صبري ولم أعد أحتمل. إما أن تذهب إلى المخفر، أو سأذهب أنا وأفتح فمي على مصراعيه.

قال السيد نوري وكأنه يبكي:

ـ كيف سأذهب إلى المخفر يا هانم..؟ ألا تعرفينني؟

قال متين:

ـ والله يا أبي.. أنت معقد من المخفر.. وهذا مرض بحد ذاته. ماذا يحصل لو ذهبت؟

ـ يا بني.. لا أستطيع مجادلة الثرثارين.. لأنهم دون لجام.. يعني هل

تريدني أن أرمي حجراً على خلية النحل..؟ ألم تسمع هذا القول؟ «داروا سفهاءكم».

لكنه لشدة إلحاح أهل بيته.. وجه السيد نوري رسالة إلى من في الطابق الأرضي، وأخرى إلى من في الطابق العلوي.. رجاهم فيها.. على الأقل أن لا يزعجوهم بعد منتصف الليل. ويخففوا قليلاً من الصراخ والضجة والرقص. غير أن إيصال الرسالة صار مشكلة بحد ذاته، لأن الجميع أرادوا من السيد نوري أن يحمل الرسالة بنفسه إليهم.. ولكنه رفض رفضاً باتاً.. ولما لم يرض أحد منهم حمل الرسالة، قالت غولاي بشجاعة:

ـ ماذا سيحصل.. أنا من سيوصل هذه المصيبة.

قالت ذلك.. ولكنها ندمت على ما بدر منها. وحتى لا تتراجع عن كلامها.. حملت رسالة والدها إلى الطابقين. لكن غولاي عادت باكية. فقد سخروا منها. وجاء ردهم على الرسالة.. مزيداً من الإزعاج والضجيج وصل إلى أربعة أضعاف.

صارت السيدة مهبارة تركل السجاجيد لشدة غضبها.. فحملت عصا المدفأة وبدأت تضرب بها السقف. فقال زوجها راجياً:

ـ بالله عليك يا امرأة.. لا تفعلي هذا.. رجاء يا هانم.

في هذه الأثناء رُنَّ جرس الباب.. وحصل ما حصل...

فالرجل المجرم الذي يسكن الطابق الأرضي دخل بيتهم بهمجيته.. وصرخ بأعلى صوته.

ـ من رجل هذا البيت ولك؟

كان الرجل ثملاً.. يترنح في وقفته. عند رؤيته صار وجه نوري أصفر كالليمون.. وانحل رباط ركبتيه، وأسند نفسه إلى الجدار كي لا يسقط إلى الأرض، وقال:

ـ تفضلوا يا سيدي.. أهلاً وسهلاً بكم.

قال الرجل:

ـ يسمونني (حيدر الدخاني) وربما سمعتم عني كثيراً..

قال السيد نوري:

ـ تشرفنا يا سيدي.. وأنا (نوري باك يوراك).

ـ لا أريد إطالة الحديث.. لا تسببوا لي آلاماً في رأسي أنا بغنى عنها.. المشاكل لا ترهبني.. ولكن.. اتق الله واخرج من هذا البيت بالتي هي أحسن.. لأن صاحبه يدفع ألفي ليرة لمن يخرجكم منه.. انظر.. ثبت رجليك جيداً على الأرض أيها الخنزير /يعني دير بالك على حالك/.

قال متين:

ـ وما علاقتك أنت لتتدخل بيننا وبين صاحب البيت؟

قال حيدر الدخاني (/الدوماني/ بالتركي) وهو يخفق فمه:

ـ الواضح أيها الشاب أنك لا تقرأ الصحف.. ولم تسمع شيئاً عن حيدر الدوماني أبداً.. لا تجعلوني أجادلكم من أجل ألفي ليرة.. فأنا قادر على إنجاز مهمتي خلال يومين فقط، وأقبض أجرتي.

قال حيدر الدوماني وهو يخرج:

ـ إنسانية مني أستمهلكم ليومين فقط.. بعدهما أنتم الملامون.. أنذرتكم لأرفو الذنب عني.. إن كنتم لا تعرفونني فاسألوا كل (توب خانه) و(غلطة) عني. حتى وحش طوروس عندي (فيظ ويز) لا يساوي شيء.. لا أحسب له حساباً. هل فهمتم..؟.

بعد ذهاب حيدر الدوماني بقيت العائلة صامتة طوال دقيقتين. تساءلت السيدة مهبارة :

ـ من هو الذي لا يخاف منه هذا الرجل؟

قالت غولاي:

ـ إنه لا يخاف حتى من وحش طورروس.

ـ أتقولين وحش طورروس؟ ومن يكون هذا؟

قال متين:

ـ لقد كتبت الجرائد عنه يا أمي.. يقال إنه قتل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين.. إنه مجرم بكل معنى الكلمة.

قالت غولاي:

ـ يقولون إن البوليس يقتفي أثره.. ويقال إنه في استانبول.

أما السيد نوري فقد انزوى في إحدى الزوايا.. لا ينطق بكلمة لشدة خوفه من (حيدر الدوماني).

ومنذ ذلك اليوم تحول المنزل إلى مكان يستحيل العيش فيه.. حيث اختلط الصراخ بالغناء، والغزل بالجاز.. في الطابقين الأرضي والأعلى.

من الأرضي (ألا توركا) ومن الأعلى (ألا فرنجا).. وبما أن رسالة الترجي لم تنفع شيئاً.. أصبح التحمل والصبر هما الأفضل. ولكن الآخرين زادوا من غيهم وطغيانهم.. ففي أحد الأيام بدأت جلبة غير مألوفة في الطابق الأعلى.. أصوات فؤوس ومطارق وقرقعة حديد.. عرفوا ماهيتها عند المساء؛ فقد بدأت جماعة (ألا فرنجا) بفتح ثقوب داخل كل غرفة، يصبون الماء من هذه الثقوب إلى الأسفل..

وعند كل صباح يمر صاحب البناية بعائلة السيد نوري ويقول لهم ساخراً ضاحكاً:

ـ كيف وجدتم الوضع..؟ ألا تريدون الخروج بعد..؟ لا تخرجوا وسنرى.. ما شاهدتموه ليس شيئاً على الإطلاق.. غداً سيبدأ (حيدر الدوماني) بثقب السقف من الأسفل.. وسيطلق عليكم غازاً ساماً.

أما زوجة السيد نوري وأولاده فكانوا يضغطون عليه كي يذهب إلى المخفر ويقدم شكوى بحق هؤلاء.

تحملوا كل شيء حتى الآن.. ولكن ما لا يحتمل جاءهم في نهاية المطاف.. وهو الرذالة بعينها: في أحد الأيام دخلت غولاي المنزل وهي تصرخ بجنون ودون توقف ولا تجيب على أي سؤال سوى بدموع عينيها وبالفهقة الصادرة من أنفها. وعندما سألتها أمها أشارت إلى النافذة. نظرت السيدة مهبارة من النافذة وقالت مذعورة:

ـ آ آ آ.. الحيوانات عديمو التهذيب.

وغطت وجهها بيديها.

فذهب متين ووالده ونظرا من النافذة، فشاهدا الحقارة والرذالة اللتين لا يستطيع أحد تحملهما ولا قبولهما؛ كان صاحب البيت قد أوقف مقابل كل نافذة رجلاً يكشف عن عورته ليراها كل من يرنو من النافذة.

أصبح منزل السيد نوري مطوقاً كقلعة من كل جانب.. من الأسفل والأعلى ومن كل الجهات.

والتعب أخذ من العائلة كل مأخذ، فهي لم تذق طعم النوم منذ أسبوع.

في منتصف تلك الليلة.. تركت السيدة مهبارة سريرها بسرعة وهي نصف عارية، بعد أن اعتادوا على الضجيج.. عندما شعرت أن المياه تتدفق من الثقوب والجميع نيام ممددون على أسرتهم.

قالت السيدة مهبارة بغضب:

ـ هيا أيها السيد.. جهز نفسك واذهب إلى المخفر.

ـ هل قلت المخفر..؟ هل جننت..؟ لا أستطيع مطلقاً.

قالت غولاي صارخة:

ـ طيب.. وماذا سيحدث يا أبي؟ هل يستطيع الإنسان تحمل هؤلاء حيث تزداد مضايقاتهم يوماً عن يوم؟

قال متين:

ـ ليأت البوليس ويروا كل شيء بأم أعينهم.

أما السيد نوري فكان يقول عندما تناله الهجمات من زوجته وأولاده:

ـ الصباح رباح.. ماذا سيحصل يعني..؟ اصبروا بعض الشيء.. أنا لا أشتكي ولا أذهب إلى المخافر من أجل هؤلاء.. «أبوس رجليك يا مهبارة» كيف أذهب إلى المخفر..؟

ألبسوا السيد نوري ثيابه عنوة ولم يأبهوا لرجائه.. وأرسلوه إلى المخفر.. صار السيد نوري يبكي، وقال وهو يخرج من الباب:

ـ أشعر بأشياء غريبة في أعماقي.. وكأن مصيبة كبيرة هبطت على رأسي.

وقال:

ـ أستودعكم الله..

وكأنه يريد أن يقول لهم: «سامحوني».

أما الأصوات المقلقة والتي تصم الآذان فقد ازدادت في البناية.. جميع أنواع الأصوات.. إضافة إلى المياه التي تسيل وتتسرب من الثقوب مالئة أرجاء البيت.

كان المسكين السيد (نوري باك يوراك) قد خرج من بيته، بعد منتصف الليل متجهاً نحو المخفر ليقدم شكوى بحق ساكني الطابقين وصاحبه وهو الذي لم يعرف في حياته كلها.. لا محكمة ولا مخفراً ولا بوليساً. كانت قدماه تتعثران بالحجارة في الظلام.. وهو يحاكي نفسه:

- سيجلبون المصائب إلى رأسي.. بعد هذا العمر.. ماذا سأعمل في المخفر.. ابني الذي أصبح شاباً أو رجلاً.. وابنتي الأخرى.. تمسكا برأيهما: «بابا.. اذهب إلى المخفر».. إذا كان الذهاب إلى المخفر سهلاً هكذا.. فلماذا لا تذهبون أنتم..؟!

وصل إلى المخفر وظل يحدث نفسه.. نعم وصل.. ولكنه لم يتجاسر على الدخول.. بقي بعض الوقت يدور أمام الباب.. لا.. أبداً لا يستطيع الدخول من هذا الباب.. وقلبه على وشك الوقوف من شدة الخفقان بسبب الانفعال الذي هو فيه.. وعندما شاهد حارساً يهبط الدرج.. ارتعدت فرائصه كليّاً فاستدار عكس اتجاهه.. وأسرع باتجاه منزله فقطع المسافة خلال خمس دقائق.. والمسافة بين منزله والمخفر مشياً نصف ساعة.. وعندما وصل إلى منزله كاد أن يقول لزوجته وأولاده:

«أنا شخصياً لن أستطيع دخول المخفر.. اذهبوا أنتم وقدموا شكوى بحق هؤلاء».

وأمام الباب فقط تراجع عن قراره بدخول المنزل.. من يدري ماذا ستقول عنه زوجته وأولاده بسبب جبنه هذا..؟ فاتجه من جديد نحو المخفر ممنياً نفسه بشيء من الشجاعة بين الفينة والفينة.

«وماذا يعني..؟ طبعاً لا يأكلون البشر هناك.. أدخل وأقول للسيد المفتش: إن صاحب البيت أقام دعوى ليخرجنا من المنزل.. وعندها.. يا سيدي.. استأجر مجرمين من الدرجة الأولى وأسكنهما في الطابق الأرضي والطابق الأعلى من منزلي.. وأقول: لم يتركوا أسلوباً مزعجاً إلا واستخدموه معنا».

وصل إلى المخفر وهو يتحدث هكذا.. عندما رأى باب المخفر خانته شجاعته مرة أخرى.. وقفل راجعاً كطفل شاهد ما أرعبه فهرب.

أقام السيد (نوري باك يوراك) خيطاً مكوكياً بين منزله والمخفر ذهاباً

وإياباً.. يخاف العودة إلى منزله ولا يتجاسر على دخول المخفر.. وبقي هكذا في عرض الشارع.

وأخيراً دخل المخفر مجبراً أشبه بمن علق برقبته حجراً وألقى بنفسه من سطح (السراي) إلى البحر منتحراً.. وما أن خطا أول خطوة على باب المخفر.. ندم على فعلته.. ولكن بعد فوات الأوان.

دخل غرفة (الكوميسير) أو المفتش، فشاهد رجل بوليس مناوباً في الغرفة.. وقد أسند رأسه إلى يديه.. واسترسل بنصف إغفاءة كنوم الثعالب.. عندما أحس بدخول السيد نوري إلى الغرفة.. تحرك من مكانه بسرعة خاطفة، كمن أجفل.. تراجع على أثرها السيد نوري ثلاث خطوات نحو الخلف.. كان يريد أن يتحدث ويتحدث.. ولكن جرأته خانته، فلم يقوَ على إخراج كلمة واحدة من فمه.

مسح الشرطي عينيه الناعستين بيديه.. ونظر إلى السيد (نوري باك يوراك).. وهو يحرك أجفانه بسبب النعاس.. أطال النظر بعض الوقت أيضاً.. نظر بدقة متناهية.. وكلما طال نظره.. كانت سحنته تتغير تباعاً.. وقف الشرطي على رجليه.. وسار نحو (باك يوراك).. عندها تراجع السيد نوري نحو الخلف.. وغطى وجهه بيده اليمنى كطفل يخاف صفعة قوية ممن أمامه.. اقترب الشرطي من السيد نوري حتى أوشك أنفاهما أن يتصافحا.. كان يراقب وجهه عن كثب وبدقة متناهية.. وعاد إلى طاولته بسرعة البرق.. وأخرج من درجها صورة فوتوغرافية.. وصار ينظر مرة إلى الصورة، ومرة إلى وجه (باك يوراك).. وضع الشرطي يده على مسدسه، وباليد الأخرى ضغط على زر الجرس بقوة.. وأطال الضغط..

تعتع السيد (باك يوراك) بكلمات قليلة:

ـ أنا...

ولكن الشرطي شتمه بقوة:

- اخرس.

دخل شرطي آخر الغرفة.. وسأل:

- ماذا هناك؟

أشار الشرطي المناوب بيديه وقال:

- اسكت.

وطلب منه الاقتراب.. فأراه الصورة التي في يده.. وأشار إلى السيد (باك يوراك).. تغير وجه الشرطي الثاني لهول ما رأى.. وصرخ:

- تمام.. هو نفسه.

- بالضبط.. هو بعينه.

نعم.

صرخ الشرطي المناوب بالسيد (باك يوراك):

- لا تتحرك.

وهل كان السيد (باك يوراك) يقوى على الحراك بعد هذه المعمعة من النظارات والتدقيقات.. فترامى على كرسي كان أمامه.. وضم فخذيه إلى بعضهما خوفاً من أن يبول بثيابه.

بينما التصق الشرطي المناوب بالهاتف.. أدار الأرقام.. وبدأ بالحديث:

- ألو.. ألو.. مع من أتكلم..؟ نعم.. نعم يا أفندم.. لقد قبضنا على وحش طوروس يا أفندم.. نعم وحش طوروس.. هو بعينه.. قبضنا عليه مع بزوغ الفجر.. على الأغلب جاء إلى المخفر ليسرق الملف الخاص به.. محاولاً الإغارة على (قرة كول) /المخفر/.. أنا شخصياً قبضت عليه.. أرسلوا لنا يا سيدي.. حتماً لا.. وجهت مسدسي إلى صدره تماماً.. لن أتركه يهرب مني أبداً.. إنه يقف رافعاً يديه في الهواء.. نعم.. عشرون

نفراً يكفي يا أفندم.. أشكرك.. نحن ننتظر توجيهاتك.. لا تهتموا أبداً.. لن أتركه يهرب مني.

عندما كان الشرطي يتحدث على الهاتف.. ويتحدث.. كانت نظراته لا تفارق السيد (باك يوراك) المكوَّم على الكرسي.

لم تستطع عائلة (باك يوراك) النوم حتى الصباح.. والمياه تتساقط من السقف.. بينما كانت الأصوات تتصاعد مدوِّية عبر الثقوب أيضاً من السقف السفلي.. ويا لتلك الأصوات.. من الأعلى ومن الأسفل تحرم الأصم الراحة.

دخلت غولاي الصالون بثياب نومها وصرخت كالمجنونة:

ـ سأجن يا أمي.. ليالي طويلة لم أذق فيها طعم النوم أبداً.

كانت السيدة مهبارة قابعة.. منطوية على ذاتها وكأنها تجلس تحت المطر، وقالت:

ـ إن المياه تتسرب من كل الأماكن.

ـ ألم يأت أبي، أو ألم يرجع بعد؟

ـ نعم لم يرجع.. إنني أفكر فيه.. ماذا حصل له يا ترى؟ كم الساعة الآن.

نظرت الشابة إلى ساعة الجدار.. وقالت:

ـ الثالثة والنصف صباحاً.

ـ آمان يا إلهي.. أوشك أن ينبلج الفجر.. أين بقي هذا الرجل؟ المخفر ليس بعيداً من هنا.

ـ سأوقظ أخي.. ليذهب ويلقي نظرة.

ـ هل هو نائم..؟

ـ إنه نعسان، فمنذ ليالٍ طويلة.. لم يعرف النوم، ولم يذق طعم

الراحة.. لقد أغمي عليه.

في هذه الأثناء قرع الباب.. قالت غولاي:

ـ هاه.. لقد جاء أبي..

وأسرعت وفتحت الباب، ثم عادت.. قالت:

ـ إنه ليس بأبي.. بل رجل غريب.

ـ ماذا يريد منا في هذه الساعة المتأخرة؟

ـ لا أدري.. إنه في الباب.. قلت له.. أبي غير موجود.. طلب مقابلة أخي.

ـ الله.. الله.. ألا ينتظر هذا الرجل حتى الصباح؟ من هو يا ترى..؟ أيقظي متين ليراه.. ويتعرف عليه.. ثم يذهب إلى المخفر ويسأل عن والده.

ذهبت غولاي لتوقظ أخاها.. كانت الأصوات المزعجة تزداد من الأعلى والأسفل بين وقت وآخر.

حضر متين بشوم النوم.. كان عابساً.. وغارقاً في التفكير.

ـ من هو يا متين؟

بقي متين صامتاً.. في هذه الأثناء.. اندلقت المياه فجأة على رأس غولاي. رفعت الشابة نظرها نحو الثقب. وإذا بدلو آخر من الماء.. يندلق على وجهها.. فتبلل كل جسدها. أسرعت نحو غرفتها والمياه تتساقط عن جسمها.. ومتين واقف.. واضعاً يده اليمنى تحت مرفقه الأيسر.. ويده اليسرى على خده.. غارقاً في التفكير.

كررت الأم سؤالها:

ـ من هو يا متين..؟ هيا قل يا بني.

ـ إنه شيء غريب يا أمي.. يقول إنه رجل شرطة مدني.. قادم من المخفر.

ـ هل سألته عن أبيك؟

ـ جاء من أجله.

ـ لماذا تتحدث هكذا يا بني كأنك تتحدث عن لغز؟.. هل حدث لأبيك شيء؟

ـ إنهم يريدوننا إلى المديرية العامة غداً صباحاً.

ـ ومن أين جاءنا هذا؟

بعد أن دخلت غولاي غرفتها وبدَّلت ثياب نومها المبللة.. قال متين:

ـ لقد قبضوا على أبي.. ولن يتركوه هذه الليلة.

صرخت غولاي باكية:

ـ لماذا..؟ وما السبب..؟

تحركت السيدة مهبارة من مكانها سريعاً وقالت:

ـ وما المناسبة؟ نحن المشتكون.. فلماذا يقبضون على أبيك..؟ هل انقلبت الدنيا وتغيرت المفاهيم..؟ ما أقل شرف صاحب هذا البيت..! ألم تتمكن الشرطة من إسكات هذين الثرثارين؟

قال متين:

ـ هذا ليس من عمل صاحب البيت.. لقد قبضوا على أبي لسبب آخر.

قالت غولاي:

ـ ماذا تقول يا أخي؟ وما شأن أبي بقضايا الشرطة؟

قالت مهبارة هانم:

ـ قلبي أوشك أن يتقطع.. ماذا فعل رجل مثل زوجي حتى تقبض عليه الشرطة؟

قال متين بصوت متهدج.. وشدد على مقاطع الكلمات:

ـ أنتم تعلمون أن الجرائد تكتب ومنذ شهور طويلة عن مجرم يسمى وحش طوروس..

ـ e..e..e إيه..

ـ نعم.

ـ أبي وحش طوروس نفسه.. هكذا قال الشرطي.. فقبضوا عليه وتمتم متعجباً: «قال شو؟ أبي وحش طوروس!».

صرخت السيدة مهبارة:

ـ آي ي.. وسقطت على الأرض مغمياً عليها.. وفي هذه الأثناء تماماً أُفرغ دلوٌ آخر فوقها من الثقب. وظلت أصوات الزعيق والضجيج والرقص والغناء تصدر عن الطابقين وتصم الآذان.

ومع الصباح الباكر.. كان الأطفال الصغار.. الذين يبيعون الجرائد يصرخون بأعلى أصواتهم.

ـ قبضوا على وحش طوروس.. قبضوا على وحش طوروس..

بما أن قصة وحش طوروس التي أذهلت الرأي العام وأصبحت هاجسه فقد بيعت الجرائد في ذلك اليوم بكثرة.. لقد قبضوا على السيد نوري (باك يوراك).. على أنه الرجل المعروف، والمجرم المشهور وحش طوروس.. ونظراً لقيام هذا الوحش بأفعال شنيعة ضد البشرية، وبسرقات كبيرة.. فقد ذاع نبأ القبض عليه.. حتى خارج تركيا.. وتناقلته وكالات الأنباء العالمية.

دخل الصحفيون بيت (باك يوراك) وبدؤوا بتصوير زوجته وابنه وابنته.. وكانوا يسألونهم عن هذا الوحش.. وعن علاقته معهم.. وكيفية تعامله مع الآخرين إلى ما هنالك.. أسئلة ملأت صفحات الجرائد والمجلات إلى جانب صورة وحش طوروس.

أما ما يميز هذا الوحش عن بقية المجرمين.. أنه كان يقوم وحيداً بكل أفعاله الشنيعة من قتل وسرقة.. فلا أحد يعرف عدد الأرواح التي أزهقها وقتلها شر قتلة.. ولا عدد السيارات والشاحنات والبنوك التي سطا عليها. كانت الأوصال تتقطع لمجرد ذكر اسمه. لقد ملأ قلوب الناس خوفاً ورعباً. لم يكن بحاجة لحمل المسدس أو الخنجر أو أي شيء. أما ما كان ملفتاً للنظر حقاً.. أن هذا الرجل كان يعيش نمطين من الحياة، وشخصيتين متناقضتين.. إحداهما شخصية الوحش الكاسر، والأخرى الجبن والخوف المسيطر عليه دائماً. تراه منزوياً في حياته الخاصة.. ذا شرف وكرامة وأخلاق.. وعنده عائلة فريدة.. وهو أب مثالي محب كثيراً لأولاده.

وكلما أوغل الصحفيون في البحث عن شخصيته ودراسة حياته، كانوا يتوصلون إلى أن الرجل منعزل وجبان.. حتى أن الأطباء النفسانيين قدّموا دراسات مستفيضة عن أمثال هذا الشخصيات التي تملك نوعين أو نمطين من السلوك.

وعند التحقيق معه.. بدا أن الرجل لا يتذكر أي شيء من جرائمه.. لا القتل ولا السرقات.. إذن لا بد أن هذا الرجل مريض ويحمل روحين متناقضتين تحت جانحه.. في ظاهره موظف صغير منذ ثلاثين عاماً.. يعيش حياة هادئة.. صامتة.. لا تشوبها شائبة.. وفي داخله وحش كاسر حمله معه على مدى تلك الأعوام الطويلة. عاش العلماء في جدل طويل عند دراسة شخصيته: هل كان هذا الرجل مذنباً؟ أم كان مسكيناً؟ أم مريضاً نفسانياً؟ أم كان مجنوناً يستحق مشفى للأمراض العقلية «العصفورية»؟

لم يكن هناك أدنى شك في عدم كون هذا الرجل هو وحش طورروس. لأنه في آخر عملية سرقة قام بها في أحد القطارات سقطت

منه محفظة جيبه وهويته.. والصورة التي تحملها الهوية والاسم هما للسيد نوري باك يوراك شخصياً. ومن المستحيل أن يكون هذا خطأ. ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد زار وحش طوروس كثيراً من الولايات والمناطق والنواحي تحت اسم نوري باك يوراك.. حتى أنه صاحب هناك بعض النساء والفتيات.. بعضهن عنوة.. والبعض الآخر برضاهن.. وأنجب من بعضهن أولاداً.. واليوم تتراوح أعمار بعضهم بين ١٥ ـ ٢٠ عاماً.. دون أن يشاهدوا والدهم مطلقاً.. وكلهم يقولون اليوم وبلسان طليق: «نحن أولاد نوري باك يوراك».. واتجهوا أفراداً وجماعات إلى بيت من ادعوا أنه والدهم.. يريدون نصيبهم من أموال أبيهم.. فالأموال التي سرقها وحش طوروس كانت كثيرة، وصارت ملحمة على كل لسان.

فهل يتمكن مالك البيت من إخلاء منزل هذا الرجل المخيف، وثقب سطحه، بعد أن أصبح الوضع معقداً جداً..؟!

حزنت السيدة مهبارة جرّاء المصائب التي انصبت مجتمعة على زوجها في الأيام الأولى.. ولكن فيما بعد وعندما رأت أن زوجها قد خانها مع نساء كثيرات، وله أطفال كثر منهن.. وبدؤوا يطرقون باب بيتها على أنهم أولاد زوجها.. لم تعد تحزن عليه أبداً.

وكانت ابنتها غولاي تقول لها:

ـ طيب يا ماما.. متى فعل أبي كل هذه الجرائم؟!

في الوهلة الأولى لم تستطع السيدة مهبارة الإجابة عن هذه التساؤلات.. لكنها بعد تفكير عميق توصلت إليها:

ـ ألم يذهب إلى أنقرة ثلاث أو أربع مرات كي يحل مسألة تقاعده..؟ وذهب ثلاث مرات إلى المشفى.. ألم يغادر البيت كثيراً في شبابه..؟ يخرج ليعود بعد أربعة أو خمسة أيام.. لقد كان يخدعنا على الدوام..

يخرج إلى وحشيته.. واه.. واه.. كيف عشت هذه السنوات الطوال دون خوف مع هذا الوحش؟!

لقد أصبح أولاده وزوجته يخافون حتى من النظر إلى صورته المعلقة على الجدار، وأصبحت خطوط وجهه المريحة، وعيناه الشبيهتان بعيون الحملان.. مصدر رعب وخوف بعد أن كانتا مصدر طمأنينة وحب..

ـ انظر هاتين العينين.. إنهما عينا وحش ليس إلا.. وحش متعطش إلى الدماء.

قال ابنه متين:

ـ أما أنا.. فقد كنت مقتنعاً أن شيئاً ما هاماً يكمن وراء خوفه من الشرطة والدرك والمخفر والمحكمة.. لقد أحسست بذلك كله.. هل تتذكرون الليلة التي أرسلناه فيها إلى المخفر عنوة..؟

قالت السيدة مهبارة صارخة:

ـ اخرس.. الحمد لله أنكما لستما مثله، ولا تشبهانه بشيء.

طلبت إحدى الشركات السينمائية الأمريكية الكبيرة أن تصور فيلماً عن حياة وحش طوروس. المقربون منه كانوا يصفونه بأنه رجل لا يؤذي نملة، وهو رحوم.. وأليف.. فهل يمكن أن تتقمص هذه الشخصية الرحيمة الأليفة شخصية الوحش..؟! هذا التشابك الغريب كان مثار دهشة واستغراب الجميع.

طبعاً.. سيكون الفيلم سلعة تجارية رابحة بكل تأكيد.. لأن شريطه سيحوي صورة لشخص تتنازع في سلوكه شخصيتان متضادتان متناقضتان.

بقي نوري باك يوراك ثمانية أشهر في السجن.. كان المجرمون جميعاً يقدمون له الاحترام والتقدير.. لخوفهم منه.

بعد ثمانية أشهر صار نوري باك يوراك حراً..! وتسألون عن السبب..

لأنه اقترف آخر ذنب له قبل عامين.. وبما أن قانون العفو العام قد صدر في العام الماضي.. وكل ذنوبه المخيفة والكثيرة دخلت ضمن نطاق العفو العام.. أصبح حراً طليقاً..

وبديهي جداً أن يذهب نوري باك يوراك إلى منزله.. فاستقبله الجميع بكل حفاوة وتقدير.. لا حباً به، ولا احتراماً له.. وإنما خوفاً منه.

قالت زوجته:

ـ آه يا زوجي العزيز.. ورمت بنفسها بين أحضانه.. ثم تراجعت فوراً.. ولم تقترب منه بعدها. أما ابنه وابنته فكانا يرتجفان هلعاً وخوفاً من أبيهما. الجيران كلهم دون استثناء جاؤوا ليقولوا له: «حمداً لله على السلامة» وقد قطع الخوف أنفاسهم، معبرين عن استعدادهم لتقديم خدماتهم وتلبية حاجاته.

كانت زوجته وأولاده.. يقفلون غرفهم في الليل وينامون.. لم يكن إقفال الباب بالمفتاح سيوفر الأمان فصاروا يكدسون الصناديق خلف الباب كي لا يستطيع الدخول. ومع ذلك كانوا لا يرتاحون.. وأقبل الجيران يدعونهم إلى منازلهمليناموا هناك براحة وطمأنينة.

أما مالك البناء الذي حاول إخراجهم من البيت ونغَّص عليهم عيشهم..

ـ آمانين.. «وقعت على موقدك».. لا تقسو علي يا سيد نوري..

يقول ذلك متململاً عند قدميه.. يرجوه بكل السبل والوسائل:

ـ لا أريد منك أجرة يا روحي، ولا أي شيء آخر.. لا كلفة بيننا.. جيبي وجيبك واحد.. وهذا المنزل.. لا فرق أكان لي أم لك.. أدام الله

الصحة والعافية.. اسكن فيه حتى الرمق الأخير من حياتك.. فلن أطالبك ولو بعشر بارات.

وباشر فوراً بترميم ما كان قد خربه.. وجاء الرجلان اللذان كلفهما بإزعاج نوري وتهديده.. فاعتذرا منه.. وقبلا رجليه ويديه.

احتار السيد نوري وأذهلته كل هذه التصرفات.. ماذا حصل لهؤلاء البشر..؟! فهو لا يتذكر شيئاً من الوحشية التي نسبوها إليه.. وربما يعيش في داخله إنسانان.. أحدهما مظلوم هادئ.. نوري الصغير الضعيف، والآخر وحش طورروس!

وفكر في نفسه: هل يعقل أن يكون جميع هؤلاء الناس مخطئين..؟ زوجته.. أولاده..الصحفيون.. الشرطة..؟ كلهم.. كلهم.... من المستحيل أن يقعوا جميعاً في خطأ كهذا. إذن.. هو وحش بحق ولكنه لا يدري.. سرق بنوكاً.. وقتل العشرات.. هكذا هو الوحش الحقيقي.

كان السيد نوري باك يوراك يدخل غرفته ويبكي، ويقول:

- يا إلهي.. ألم تجد قفصاً غير جسدي الضعيف هذا لتحبس فيه هذا الوحش..؟

كان بحاجة إلى الحب والحنان.. يذهب إلى زوجته.. فتختلق له عذراً وتهرب منه.. يريد محادثة ابنه وابنته اللذين أحبهما كثيراً.. هما أيضاً كانا يهربان.

صدق السيد نوري.. أنه وحش.. كان ينظر إلى المرآة الكبيرة في الصالون.. فيخاف من نفسه.. كان يريد أن يهرب من واقعه.. فشخصية الوحش قد استهوته بشكل مثير.. وصار عندما يقف أمام المرآة.. يصرخ كالوحش من وقت لآخر.. ويصدر أصواتاً غريبة.. ويحاول تسلق الجدران.. حتى أنه بدأ يقرض الأخشاب.

صباح أحد الأيام.. نشرت الصحف خبراً مفاده أنه تم القبض على وحش طوروس للمرة الثانية.. كان المقبوض عليه وحش طوروس الحقيقي.. لم يكن اسمه نوري باك يوراك.. ولم يقبض عليه بالجرم المشهود. قال:

ـ لا يتمكن أحد من القبض علي.. إلا أنني أسلمكم نفسي بإرادتي.. عندما سمعت أنكم ابتدعتم صعلوكاً من بين الناس وقدمتموه على أنه وحش طوروس.. أنا لم أقبل أن يحمل هذا الرجل لقبي لله بالله.. وهاأنذا أستسلم لكم.

ـ وما قصة الهوية؟

ـ نعم إنها قصة قديمة.. لقد وجدتها عندما كنت ذاهباً للسرقة قبل عشرين عاماً.. وكان اسمه نوري باك يوراك.. استعملت هويته على مدى هذه السنين الطوال.. كي أفر من العدالة.

تذكرت السيدة مهبارة الحادثة عندما سمعت الخبر.. بأن زوجها فقد هويته في السنوات الأولى من زواجهما.. وأخرج بدل ضائع عنها فقالت:

ـ كنت متأكدة أن هذا الصعلوك عاجزٌ عن القيام بكل هذه الأعمال.

أما ابنه فقد سُرَّ كثيراً لأنه وجد أباه الحقيقي:

ـ مسكين أبي.. إنه رجل ملاك.. مستحيل أن يكون وحشاً كما ظنناه..

أما ابنته غولاي فقد قالت:

ـ لم أصدق أن الأمور قد وصلت كما صوروها.

سمع صاحب البيت بالخبر أيضاً.. وبدأ المطالبة بالأجور المتراكمة.

حضرت عائلة باك يوراك مع صاحب البيت وفتحوا باب غرفة السيد نوري بفرح.. فتحت السيدة مهبارة ذراعيها وقالت:

ـ آه يا زوجي العزيز.. لم تكن أنت ذلك الوحش..

في هذه الأثناء كان نوري باك يوراك ينظر إلى المرآة مصدراً أصواتاً غريبة.. سار نحو الذين فتحوا الباب.. فرَّ الجميع خائفين.. ولم يستطع أحد إقناع نوري باك يوراك أنه ليس وحش طوروس الحقيقي.. فهل الوحشية أعجبته كثيراً يا ترى..؟ وربما كان وحشاً بكل معنى الكلمة..! ولم يستطع أحد فهم ذلك!

□ □ □

- ٢ -

بخير كلهم بخير

هل تعلمون أن هناك بشراً من الدرجة الثانية؟ وأن حياتي كلها عشتها معهم؟ فأنا أعرفهم جيداً.. لكن من الصعوبة بمكان أن تعرفهم على أكمل وجه.. ولن تجد سهولة في ذلك.. فهم ظاهرياً يتشابهون كثيراً.

أمعنوا النظر في مواقع الدرجة الثانية من سفن (البوغاز والجزيرة وقاضي كوي).. هناك تجدون البشر الذين هم من الدرجة الثانية.. أو الطبقة الثانية. طفولتي قضيتها قبل ثلاثين عاماً في (هيبلي آدا). منذ ذلك التاريخ وحتى الآن.. كأن الذين من الدرجة الثانية.. لم يتغيروا أبداً.. كما هم منذ ثلاثين عاماً.. فعندما أدخل الآن إلى غرفة من الدرجة الثانية في تلك السفن.. أحس وكأنني أشاهد البشر الذين رأيتهم قبل ثلاثين عاماً.. دائماً وأبداً.. نفس العجائز أو المسنين الذين سقطت أسنانهم.. نفس أولئك الرجال متوسطي العمر.. ذوي الذقون الطويلة الكثة المغبرة.. ودائماً نفس الشباب الذين أهرمتهم قساوة الحياة.. ونفس النسوة اللواتي غطت الصفرة وجوههن على الدوام.. نفس الأطفال الذين شبوا قبل أن يكبروا.. والثياب التي فقدت ألوانها.. والجوارب المرقعة.. والذي لم يتغير أيضاً الأحاديث والمزاح والسخرية.. كل شيء لم يتغير.

أسكن الآن في (أرن كوي).. أركب الحافلة الشعبية التي تقل ركاب الباخرة التاسعة القادمة من (قاضي كوي).. وهي الأخيرة التي تنقل الركاب إلى عمق (أرن كوي). تضم الباخرة في داخلها مجموعات كبيرة

من بشر الدرجة الثانية.. وعندما أتطلع إلى وجوه هؤلاء على أنوار الحافلة الخافتة.. أحسب نفسي بين من شاهدتهم قبل ثلاثين عاماً.

ولأن الحافلة عامة ليس فيها درجات.. كان مواطنو الطبقة الأولى، الراقية يركبون السرفيس أو التاكسي.. ولا يخلو أن يصعد بعضهم خطأ إلى هذه الحافلة.

ليلة البارحة.. رأيت أحد هؤلاء في حافلة التاسعة.. وبما أنه صعد متأخراً.. بقي واقفاً.. كان طويل القامة، عريض المنكبين، أوشك رأسه أن يصطدم بالسقف.. قبض بيده الضخمة الحزام المعلق بسقف الحافلة. يلبس معطفاً سميكاً. وعلى رأسه قبعة غالية الثمن، ووجهه يشبه إلى حد بعيد وجه (موسوليني).. أي أن رأسه كان ضخماً.. وبدا عليه الإزعاج كونه بين الذين هم من الدرجة الثانية.

اشترى بطاقة توصله إلى آخر موقف في (أرن كوي).. قبل أن تتحرك الحافلة صعد رجل آخر.. وكان غريباً إلى حد ما. في البدء.. لفت نظري حذاؤه البلاستيكي المرقع.. ونظارته التي فقدت ساقها الأيسر.. فربط الإطار بخيط ولفه حول أذنه.. وكذلك كُمُّ معطفه الأيسر كان مرقعاً.. وصفات الدرجة الثانية لبسته من رأسه حتى أخمص قدميه. وقف أمام الرجل الطويل.. وجهاً لوجه، وقال له:

- مرحباً.

أجابه الرجل العريض:

- مرحباً.

قال ذلك وأدار للرجل ظهره.. والواضح أنه لم يشأ التحدث مع من يقف أمامه. أما الآخر فكان يريد عكس ذلك.. فهو يريد أن يبدأ حديثاً مع الرجل العريض الطويل، ويتقرب منه.. فسأله:

- كيف حالك يا سيد جعفر..؟

قال:

ـ أنا بخير.

وقطع حديثه.

أما الآخر فلا يرغب سوى بالحديث.. وربما رغب في أن يعلم بقيم المسافرين: «هل ترون هذا الشخص..؟ قديماً كان مثلنا!».. فسأله ثانية:

ـ شو في شو ما في؟

حاول الرجل العريض أن يتقدم إلى الأمام إلا أن الحافلة كانت مزدحمة فلم يستطع أن يخطو خطوة واحدة. وعندما لم يتمكن من الفرار قال:

ـ خير.

هكذا.. كان يتحاشى استمرار الحديث مع الرجل الثاني.. وربما كي لا يعرف الركاب الآخرون أنه كان فيما مضى من الدرجة الثانية.. فسأله أبو النظارات ثانية.. إما لإغاظته، أو لفهم ما يدور في خلده:

ـ كيف الأعمال يا سيد جعفر؟

غضب السيد جعفر وقال غاضباً:

ـ الأعمال أيضاً بخير.

ـ أوه.. أوه.. ليعطنا الله الخير.

تحركت الحافلة.. فحدثت هزة قوية.. انتقل بسببها رجل ثالث بينهما دون قصد.. فقال أبو النظارات للشخص الذي دخل بينهما:

ـ رجاء يا سيدي أعطني مكانك.. لأنك فصلت بيني وبين صديقي.

أعطاه الرجل مكانه.. مرة أخرى كان أبو النظارات خلف الرجل الطويل العريض.

- وأيضاً شو في شو ما في يا سيد جعفر..؟

أجابه السيد جعفر على الفور بغضب.. كي لا يسأله الرجل سؤالاً آخر:

- الخير ولك أخي.. ماذا يكون يعني..؟ الخير هكذا..

- يا يا يا.. آمان ليعطنا الله الخير.

توقف دقيقتين وسأله من جديد:

- أيضاً.. أيضاً.. شو في شوما في يا سيد جعفر؟

ظل السيد جعفر صامتاً.. سأله الآخر أيضاً.. واستمر السيد جعفر في صمته كأنه لم يسمع شيئاً.. وعندما لم يتلق أبو النظارات جواباً عن سؤاله الثالث.. مد يده وضرب الرجل الطويل على ظهره.. فصرخ السيد جعفر بقوة:

- شوفي ولك عمي..؟

- أسألك ثانية وثالثة.. شوفي شو ما في؟

- أيضاً.. أيضاً خير ولك أخي.

- آمان.. جميل جداً. ليعطنا الله الخير على الدوام. ماذا يفعل السيد أحمد تبعك؟

- هو بخير.

- وكيف حال المعلم الدرزي..؟ هو الآخر بخير يا ترى؟

- هو الآخر بخير.

- جميل جداً.. جميل جداً.. ليكونوا بخير.

بعد (قاضي كوي) مررنا بثلاثة مواقف.. كان أبو النظارات يعمل تفكيره.. فإذا ما تذكر أحداً يعرفه.. كان يسأله:

- ولك عمي.. يا سيد جعفر.. كان عندكم جار.. لا أتذكر اسمه.. ناجي، أم نجدت..؟ ماذا يفعل جارك هذا؟

- بخير.

كان السيد جعفر ينتقل إلى المكان الذي يفرغ.. كي يتخلص من لابس النظارات.. ولكن الأخير لم يشأ أن يتركه.. فكان يتبعه كلما بدَّل مكانه..

- كان في عندك جار آخر.. نسيت اسمه. كان يعمل بصيد السمك.

- هو الآخر بخير..

- وزوجته.. علها بخير..؟

- كلهم بخير.

- وجيرانك كلهم.. ومن جيرانك......

أجابه قبل أن يكمل سؤاله:

- الجيران كلهم بخير.. كلهم بخير ولك أخي.. كلهم بخير ولك يا هو..

- أوه.. أوه.. ليكونوا بخير.. وذلك الشخص.. كيف هو..؟ اسمه على رأس لساني.. لم أتذكره جيداً.

- بخير ولك أخي.. هكذا ألم نقل لك كلهم بخير.

عندما كان أبو النظارات.. يسأل عن كل من يتذكره.. «كيف هذا؟» و «كيف ذاك» كان الرجل الآخر يجيبه بعصبية وقرف وكأنه يشتمه: «بخير.. وبخير». عندها قلت: ماذا يريد هذا الرجل أبو النظارات؟ وهل كان غاضباً من جواب صاحبه عن كل سؤال: «بخير»؟ وهل يكف عن الأسئلة لو أجابه الرجل: «كلهم أشقياء وليسوا بخير»؟ قد يكون هذا الرجل سيئاً.. لا يرتاح إلا عند سماعه أشياء غير مرضية.. وربما خلاف

ذلك ينتظر من الرجل الطويل العريض أن يبادره بسؤال: «وكيف حالك أنت؟» فيشعر بإنسانيته ورجولته آنذاك ويجيبه: «الحمد لله أنا بخير».. وسيخرس. وربما كان عنده ما يريد أن يشرحه لذلك الشخص واحتفظ بسؤاله حتى يراه مرتاحاً..

- يا سيد جعفر كيف هو حال المحاسب الذي عندك؟

- ألم أقل لك كلهم بخير ولك يا هو.. كلهم بخير ولك كلهم بخير.

يسكت أبو النظارات بعض الوقت.. ويعود إلى أسئلته كلما تذكر أحداً:

- وكيف حال..

- بخير.

- وذلك الذي..

- بخير ولك.

- والمرأة ضاربة الآلة الكاتبة؟

- بخير.. بخير.. الآلة الكاتبة وغيرها.. الكل بخير..

ظل الرجل الطويل يتقدم حتى صار خلف السائق ليتخلص من أبو النظارات ووقف أمام الباب الأمامي.. وأبو النظارات يزحف خلفه.. بنعله البلاستيكي المرقع.

- وفاطمة هانم.. التي كانت تذهب إلى البيوت.. كيف هي؟

- بخير..

أما أنا فكنت أنتظر أن يسأله: «وكيف أنا شخصياً» ثم سأله:

- في الأيام الأخيرة مرضتُ يا سيد جعفر.. وضعف جسمي كثيراً أليس كذلك؟ كيف وجدتني؟

ـ بخير.. بخير.. ممتاز.

المسافة إلى (أرن كوي) مازالت بعيدة، ولم نقطع نصف المسافة بعد.. والرجل الطويل.. لم يعد قادراً على التحمل.. وربما سينفجر مثل قنبلة..

ـ كان للمعلم سائق؟

ظل السيد جعفر ساكتاً.. وأبو النظارات.. لكزه من ظهره..

ـ أسألك عن السائق.. الذي تشاجر مع البواب؟

ـ هو الآخر بخير.

ـ ورئيس الورشة كاظم؟

ـ هو الآخر بخير ولك أخي.. كلهم بخير.

ـ والبستاني لاظي..

ـ ألم أقل لك كلهم بخير.. الله.. الله.. كلهم جميعاً بألف خير.

صرخ بائع التذاكر:

ـ الصحراء الجديد.. /اسم الموقف/.

وقفت الحافلة.. فُتح الباب الأمامي.. قال أبو النظارات:

ـ وكيف حال الخياطة (ملاحات).. قال ذلك ولم يكمل سؤاله.. رمى السيد جعفر نفسه على الأرض.. وأبو النظارات يصرخ من خلفه:

ـ كيف حال ملاحات هانم؟

ـ ......

ـ أهي بخير..؟

ـ ......

ـ وزوجها..؟

ـ زوجها بخير.. وأولادها بخير.. وزوجته بخير ولك.. كلهم بخير

ولك.. الله يجزيك شر جزاء.. بخير ولك واطي.. يا قليل الناموس.. كلهم بخير..

ضاع السيد جعفر في الحلكة وهو يصرخ: «كلهم بخير.. كلهم بخير»..

تحركت الحافلة ثانية.. وأبو النظارات يتحدث مع نفسه بصوت مسموع:

ـ إنه يكذب هذا المذبذب.. والله إنه يكذب.. أمن المعقول أن يكون الجميع بخير في هذا الزمان؟ يعني هل انتسب الجميع إلى الحزب!!؟

وضحك مقهقهاً..

ـ في هذا الوقت المتأخر لن يجد حافلة، وسيارة خدمة ولا سيارة أجرة.. ليذهب راجلاً إلى (أرن كوي) في هذا البرد القارس.. حتى يعود عقله إلى رأسه.. واطي.. يملك الكثير من المال.. ومازال يركب الحافلة.. ولا يركب تاكسياً.. أغضبته كثيراً.. أنقذ نفسه مني بنزوله من الحافلة.

□ □ □

ـ ٣ ـ

كيف يفعلون ذلك؟

ما سأقصه عليكم.. جرى خلال السنوات الثلاث الماضية. للتجديد والتحديث.. والحقيقة لم يتغير أي شيء.. ولكننا نحن من ظن ذلك.. وهو حصول تغيير وتجديد في معملنا.

في البدء شاع اسمه في مكان عملنا (أرجان أرجان) ثم رأيناه شخصياً.. شاب نحيف.. أنيق في ملبسه.. يمشي وكأنه يرقص رقصة (البولكا: POLKA).

ثم بدأت الإشاعات تتوزع تباعاً عن هذا الشاب.. يقولون إنه غني جداً. بعضهم يقول إنه يملك مئات الآلاف من الليرات. وبعضهم يقول إنه مليونير.. وإنه غني أباً عن جد.. وإلا.. من أين يأتي هذا الشاب الصغير بهذه المبالغ الخيالية؟!

القول إنه غني لا شك فيه.. فكل شيء يؤكد ذلك.. مشيته.. جلسته.. حركاته.. وتصرفاته أفضل برهان. ويتضح ذلك من صوت نعله وهو يمشي في الممر بين الغرف.. وفحيحه الذي ينوب عن صاحبه بالقول: «أنا غني.. أنا غني». فكتفاه لا يميلان مثل أكتافنا.. ورقبته لا تحشر خجلاً بينهما. رافع الرأس.. شامخ الأنف.. متّقد النظرات.

عندما أوشكت مؤسستنا أن تضرب الطوب/المدفع/.. أي أن تعلن إفلاسها.. جاء صاحبنا أرجان.. ودفع مائة ألف ليرة، وأصبح شريكاً ليجنب المؤسسة الإفلاس.

ولذلك.. كانت الأقاويل لا تنتهي أبداً.. إنه عاش في أوروبة.. ولكن أمواله كلها حلال.. ولم تغوه مشاكل الشباب.. أنهى دراسته الجامعية.. فهو ذكي جداً.. مثقف.. ومهذب.

كل هذا المواصفات بدت عليه كما غناه.. كان متواضعاً وبسيطاً.. لا ينظر إلى الناس من فوق.. ولا يتحدث عن نفسه.. إضافة إلى ذلك فهو شاب خجول.. يحمر وجهه خجلاً عندما يتحدث مع شخص ما.

طبعاً كل جديد.. مجهول.. فيه غرابة.. وخوف.. وانتقادات.. هكذا كنا أمام معلمنا الجديد.. كنا نريد في أعماقنا أن نركله وندفعه بعيداً جداً.. حتى وإن كنا نقف باحترام ونحن نتحدث إليه.. وكان هذا الإحساس واضحاً فينا.. تنبئ عنه نظراتنا وتصرفاتنا وحركاتنا تجاهه.. ما أحببناه أبداً.. ولماذا..؟ لأنه جديد.. وما من سبب آخر.. فنحن لا نعرفه أبداً. الشاب غني.. ذو حسب ونسب.. درس في أوروبة.

فجأة تغيرت أحاسيسنا.. ذات يوم طلبني إلى غرفته.. تحدثنا في كل الأمور.. بدا لي وكأنه صديق أعرفه منذ أربعين عاماً.. وليس رب عمل.. والأهم هو احترامه لعمري وكبري. سألني في سياق الحديث:

ـ ما هو راتبك الشهري؟

قلت:

ـ أربعمائة ليرة.

قال وهو يضرب الطاولة بقبضته:

ـ ماذا ! ! ! ؟

قلت في نفسي: «إيه.. الآن سيظهر على حقيقته».

عندما قلت له أربعمائة ليرة.. تغير لون وجهه وقال:

ـ إذن إفلاس هذا المعمل ليس عن عبث.

ربما قال هذا الكلام بسبب تأثره.. فالمعمل سيعلن بالتأكيد إفلاسه.

ـ هل هناك راتب شهري مقداره أربعمائة ليرة..؟ ألا يكفيك مائتا ليرة..؟

قلت له:

ـ لقد عملت بهذه المهنة مدة خمسة عشر عاماً.. وأنا هنا منذ ثلاث سنوات.

حصل عكس ما كنت أتوقعه، قال:

ـ كيف يفعلون ذلك..؟ كيف..؟ كيف يستغلونك بهذا الشكل..؟

فرحت كثيراً، حتى أني قلت له:

ـ أشكرك يا سيدي.

قال:

ـ لا تتعجل.. عندما أمسك بزمام الأمور.. وأفهم تفاصيل العمل على أكمل وجه.. سأفكر بأمرك.

فور خروجي من غرفته عدت إلى زملائي وقلت لهم:

ـ ولك شباب.. والله لقد أخطأنا بحق هذا المعلم الجديد.. حتماً نحن على خطأ.. بدا لي هذا الرجل على غاية من الطيبة.

سألوني:

ـ ماذا حصل؟

شرحت لهم كل شيء..

قال أحد الزملاء:

ـ قبل أيام دخل غرفتنا.. وقال: «البرد قارس هنا». قلت له: «كل يوم

يعطوننا نصف تنكة من الفحم». ضرب ركبته بيده وقال: «لعنة الله على أمهم.. كيف يتصرفون بهذه الحقارة..؟ والله أنا لا أفهم!».

بدأنا نحبُّ هذا الشاب.. كان يتحدث مع كل فرد منا لوحده.. يضرب نفسه ويتألم من أجلنا وهو يقول: «كيف يفعلون ذلك..؟ كيف يأكلون حقكم..؟ ما هذه الحقارة..؟». وكلما احتار في وضعنا.. كان يردد:

ـ كيف يفعلون ذلك بهؤلاء البشر..؟!

وعندما تحدث مع زميل لم يوافقوا له على إجازة أربعة أيام خلال أربع سنوات، قال:

ـ هذه قلة ناموس..؟ ما هذه الكلبنة أولاد الكلبة..؟ لا يمكن لرأسي أن يستوعب مثل هذه الأشياء.. كيف يفعلون ذلك..؟!

ظهرت ردود فعلٍ كلماته هذه على الفور.. بدأ الجميع يعملون بجدٍّ ونشاط.. وكأن كلاً منا يعمل لنفسه.. وتضاعف الإنتاج.. حتى أن البعض كانوا يعملون أيام الآحاد /العطل/ دون أجر. ماخلا زميل لنا يسمى إحسان.. لم يقتنع بكل ما نقول.. كان معارضاً لهذه الحركة.. يقول.. أنا لا أحب هذا المعلم الشاب مطلقاً، ولا أصدِّقه في شيء مما يقول. والحقيقة.. كنا نغضب من إحسان كثيراً ونقول له:

ـ هل يعقل لإنسان كهذا أن يتصرف بهذه الحقارة..؟ هذا الرجل الملاك بعيد عما تفكر.

وصرنا نترقب اليوم الذي يصبح فيه هذا الشاب مديراً.. ليرفع رواتبنا، ويفي بما قطعه على نفسه.. انتظرنا ثلاثة شهور.. لم يتغير أي شيء.. بل عكس ما توقعناه.. فلما ازدادت برودة الطقس.. ولم يقدموا لنا سوى ربع كمية الفحم التي كنا نأخذها سابقاً.. والرواتب التي كنا نقبضها صارت تتقلص شهراً بعد شهر. مع علمنا الأكبر أن أصحاب العمل كانوا يربحون

الأموال الطائلة.. لقد دفعوا مبلغ ثمانمائة وعشرين ألف ليرة.. ضريبة.. فكم يكون ربحهم حتى وصلت الضريبة إلى هذا الرقم.

قال لنا إحسان:

ـ ألم أقل لكم..؟

وصمم على خلق مشكلة كبيرة في المعمل غير أننا منعناه بالقوة..

ـ انتظر يا أخي بعض الشيء.. لنعض على أسناننا بعض الوقت.

في اليوم التالي فصلوا إحسان من العمل.. انتظرنا شهراً آخر.. وبدأ العمال يتهامسون.. فالجميع قلقون.. أما الشيء الذي لم نعرفه.. هو أن كل من كان يتحدث.. نفاجأ بطرده في اليوم التالي. لقد اختفى المعلم الشاب.. ولم يظهر، ولم يعد يجالسنا.. وتقلص عدد العمال إلى النصف جراء الطرد من العمل.. وذات يوم، وبعد أن وضع الموسى على الذقن.. قال أحد الزملاء:

ـ لنذهب ونقابل هذا الرجل.. لأن أرواحنا أوشكت أن تخرج من أنوفنا.

قال الزملاء:

ـ كفى.. لقد نفذ صبرنا.

ـ كفانا انتظاراً..

وعلا الصراخ بمثل هذه الكلمات.. وسرنا معاً نحو الإدارة.. إلا أن أحد المسنين من بيننا قال:

ـ هذا الكلام مرفوض.. علينا أن نختار ثلاثة من بيننا ليقابلوا الإدارة.. ويتحدثوا عن وضعنا وعللنا ومشاكلنا.

اخترنا ثلاثة.. كنت أحدهم.. فقال أكثرنا غضباً وانفعالاً:

ـ إذا تراجع عن الوعد الذي قطعه علينا.. سأبصق في وجهه.. وإن لم

أفعل ذلك.. أكون قليل الشرف.. سأبصق في وجهه..

قالها بصوت مرتفع.

وصلنا أمام غرفة المعلم. قرعت الباب.. لم يصدر أي صوت من الداخل.. قرعته ثانية.. وفي المحاولة الرابعة جاءنا صوت من الداخل:

- ادخل..

دخلنا.. كانت طاولته مقابل الباب مباشرة.. فشاهدنا المعلم الشاب ماداً رجليه الاثنتين فوقها.. وكنا نرى رأسه من خلال ساقيه.. لم يحرك ساكناً.. حتى ولا شعرة في جسمه.. وظل يعلك.. قال:

- ماذا هناك..؟

حتى صوته صار خشناً.. قال أحد الزملاء:

- سنتحدث معك.

- المقابلة لا تكون وقت العمل.. تعالوا بعد الانصراف.

- لا.. سنتحدث الآن.

- ماذا تريدون؟

- عندما جئت إلى هنا.. سألتنا عن رواتبنا.. ألم تقل: «ما هذه الحقارة..؟ كيف يفعلون ذلك؟»

أجابه دون أن يغير شيئاً من وضعه:

- قلت ذلك.. ماذا يعني..؟ ماذا سيحصل..؟

- ألست أنت القائل حين سألتنا عن إجازتنا السنوية: «هذا قلة شرف.. كيف يفعلون هذا معكم؟»

قال بعد أن أدار العلكة في فمه دورة:

- أنا الذي قلت ذلك.. ماذا أيضاً؟

ـ ألست القائل غاضباً عندما رأيت قذارة مكان عملنا، والشروط القاسية التي نعمل بها: «هذا تقصير بحقكم.. كيف يفعلون هذا بكم؟»

ـ نعم أنا الذي قلت ذلك.

ـ وكذلك.. ألم تقل لنا بضع مئات من المرات عندما رأيت الضيق الذي نحن فيه: «ما هذه الوحشية؟ كيف يفعلون هذا بكم؟»

ـ قلت ذلك.. وماذا سيحصل يعني؟

برودة الدم التي أبداها.. لم نرها في أحد قبل هذه المرة.. قال عندما شاهد الحيرة والدهشة قد ارتسمت على وجوهنا:

ـ انظروا جيداً.. كنت أجهل حياة العمل عند مجيئي إلى هنا.. كنت غريباً عن كل شيء.. ولذلك كنت أسأل عن حياتكم وأعمالكم وأقول لكم: «كيف يفعلون هذا بكم؟».. كي أتعلم أسرار المهنة.. وبعد عمل دام ثلاثة أربعة شهور.. تعلمت.. كيف يفعلون ذلك.. ولم تعد عندي حاجة لأسألكم وأتعلم منكم.. هيا «اسحبوا عرباتكم» أي (اذهبوا إلى عملكم).

بصق العلكة التي في فمه.. وأشعل سيجاراً.. وبعد خروجنا من غرفته.. قلت لزميلنا الانفعالي أسأله:

ـ كنت ستبصق في وجهه.. لماذا لم تفعل ذلك؟

قال:

ـ بصاقي له كرامة وشرف.. أما هذا الرجل فليس له صورة وجه، فعلى أي مكان سأبصق..؟!!

□ □ □

- ٤ -
القبطان ينظر إليَّ؟

مقهى (يا ندم علي) في (غلطة).. رواده.. يتوافدون بعد التاسعة مساءً.. وكلهم قبضايات ومجرمون.. وكلاب قطعت آذانهم.

المقهى مزدحم هذه الليلة أكثر من سابقاتها.. بين الرواد (نوري البحريالي).. الذي يجمع مصروفه بقوة ساعده من جميع بيوت الدعارة. وإلى جانبه.. (الكردي آبو).. الذي أمسك سيجارة في إحدى يديه وفي الأخرى فنجان قهوة.. وقد علت حاجبه الأيسر آثار جرح سكين.. ويقال إنه بقي مسجوناً أكثر من ثمانية عشر عاماً.. ولم يمض على خروجه من السجن سوى وقت قصير. وجلس قبالته.. على كرسي آخر.. شاب طويل الشاربين.. يقال أيضاً إنه طارد مجرماً من الدرجة الأولى يسمى (رضا تاهتكللي).. من (يوكسك كالدريم) حتى (تابة باشنه).

والثالث (رحمي العربجي) الذي شمر عن ساعديه حتى كتفه ليكشف عن وشم يشبه صورة (فتاة البحر) أو (جنية البحر). هو الآخر بقي مسجوناً أكثر من أربعة عشر عاماً.. ينتظر الإعدام.

في المقهى أكثر من سبعة وعشرين زبوناً.. كلهم مجرمون وقبضايات. كل منهم يعتبر نفسه قوياً أكثر من الآخرين.. بعضهم خرج لتوه من السجن.. وبعضهم قتل العشرات.. المهم، كلهم من أصحاب السوابق الكبيرة..

هذا المكان ليس كبقية الأمكنة. هنا.. لا أحد يرفع صوته.. ولا يثير

المشاكل أبداً.. فأي تصرف تافه، وفي غير مكانه قد يثير حرباً شعواء. وإذا ما حدث شجار ما.. يكون شجاراً بمعنى الكلمة.. ولا يغلق المقهى إلا بعد أن تكون الجثث قد تناثرت هنا وهناك. ومقهى (يا ندم علي) هذا.. شهد كثيراً من المشاجرات والأحداث!

غير أن صوتاً سُمع في طرف الشارع:

ـ ها ا ا ا ا يت.. هل هناك من ينظر إلي بطرف عينه؟

سمع جميع من في المقهى هذا الصوت ووجهوا إليه انتباههم.. ما هذا العمل ولك..؟! من الذي يرفع صوته أمام مقهى يجلس فيه كل هؤلاء القبضايات؟! يبدو أنه صعلوك قد عطش إلى دمه.. أو (يريد الموت).

تردد صوت الرجل عدة مرات قريباً من المقهى.. كان صوتاً ناعماً.. لكن نبرته قاسية. بعد قليل وقف على باب المقهى وهو يقول:

ـ ولك.. القبضاي الذي يريد قتلي لم تلده أمه بعد.

مظهره ينبئ بأنه موظف.. ثيابه مكوية ونظيفة، وعلى رقبته لفحة جميلة.. لكنه كان قصير القامة، بديناً، مسناً إلى حد ما.

ـ ولك.. هل من رجل بينكم يقوى على ثني ساعدي..؟ أنا لا أرى هذا الرجل هنا.

ماذا يقول..؟! هل هذا الرجل جاء ليموت يا ترى..؟!.. لو سعل هؤلاء القبضايات دفعة واحدة.. لطار هذا الرجل القصير البدين في الهواء.

ولكن ما هذا السكون..؟ ما من أحد يرفع صوته..

همس أحد الحاضرين في أذن جاره:

ـ هل تعرفه؟

ـ لا.. لم أره في أي مكان.
ـ أنا الآخر لم أره مطلقاً.
كان الرجل.. يضرب بقبضة يده على رخام إحدى الطاولات ويصرخ:
ـ ما من أحد في هذه الدنيا يستطيع قتلي.. ولك..
ـ العن أمو..
صرخ الرجل ورفع صوته.. وخرج من المقهى.
بدأ الحاضرون في المقهى يتحدثون:
ـ يقال: الرجال غامضون، والكثير منهم مخبأون في ثيابهم.
ـ والله هذا الرجل يملك قلباً أقوى من الحديد.
ـ كثيرات هن الأمهات اللواتي يلدن أُسوداً.
ثم عادوا إلى سرد الحكايات القديمة فيما بينهم.. قال أحدهم:
ـ لا أحد يدري.. لا يغرّنك صغر الرجل أو ضخامته.. مثل هؤلاء يكونون كخشب الجوز.. لا تستطيع كسره أبداً.. في شبابي عرفت رجلاً يسمى السيد (بصري).. كان موظفاً.. قليل الشرف.. يشبه هذا الرجل..
وما أن ينهي حديثه.. حتى يبدأ آخر بسرد حكاية أخرى:
ـ أمر هذا الرجل يحيرني.. فإما أن يكون مدعوماً من أحد أو مدفوعاً من آخر. لا يمكن التغلب على أمثال هذا الرجل العجوز القصير. أنا أعرف واحداً مثله.. كان مرناً وقاسياً كالهرة. استطاع أن ينتزع السكاكين من أيدي أربعة قبضايات دفعة واحدة.. نعم، رأيت ذلك بنفسي.. وظل يطاردهم حتى حشرهم في مراحيض الجامع الجديد.
ـ هؤلاء يستعملون السكين بمهارة.. حتى أنك لا تستطيع مهاجمته بمسدس.

تضايق جميع القبضايات من هذا الرجل العجوز المتمتع بمهارات غريبة.. وأهم ما فيه مداهمته مراكز القبضايات في قلب استانبول.

أما رحمي العربجي، لم يستطع هضم هذه الحقارة الموجهة إليهم.

في الليلة القادمة.. عاد الرجل من جديد مطلقاً نفس التحديات.. ودخل المقهى متمايلاً وصرخ عدة مرات:

ـ من منكم يتجاسر على لمسي لم يخلق بعد. من يحاول أن يمس شعرة من رأسي..؟

كرر هذه التحديات عدة مرات.. أما رحمي العربجي، فكان يقول بينه وبين نفسه.. «لو أخرج إلى هذا الرجل وأريه بعض حركاتي. ولكن.. من يدري ماذا سيحصل..؟» فخاف أن يقع في ورطة أمام هؤلاء القبضايات.. وتبقى وصمة عار على جبينه طوال حياته.

فنهض رحمي وسار خلف الرجل الذي كان يمشي متمايلاً.. هذا الجدار لك وهذا لي.. فكر رحمي العربجي في نفسه:

ـ هل أضغط عليه وأعصره وأخرج الماء من جسده دون أن يعلم أحد..؟ وليحصل ما يحصل بسبب ذلك.. حتى ولو كان الموت..

أصر أن يتشاجر مع الرجل.. لم يكن يخشى شيئاً.. فمنظر الرجل لا يوحي بالخوف أبداً.. ربما يكون شجاعاً جداً.. وربما كان قوياً كالحديد.. أو خفيفاً ومرناً كالقطة!

هل يثق بمسدسه أم بسكينه؟ حتى ولو غربله بالرصاص.. فرحمي العربجي مصر على معرفة الحقيقة.. فهو واثق من نفسه.. ولكنه كان يريد أن تكون المعركة في مكان لا يراهما فيه أحد.. لقد كان يخشى الهزيمة أمام القبضايات وأسوأها أمام هذا العجوز.. حيث يكون الموت أسهل بكثير.

انعطف الرجل إلى زقاق مظلم.. لا إنس فيه ولا جان.. تحسس رحمي سكينه الحاد والمدبب والذي أسال كثيراً من الدماء.. همَّ بمداهمة الرجل بسرعة.. ولكن لا.. ليس من خلفه.. لن يغدره.. بل سيهاجمه وجهاً لوجه.. وتلمس مسدسه أيضاً.. هو الآخر جاهز. كان العجوز يسير أمامه ببطء.. اقترب منه رحمي العربجي.. لا.. لا.. إنه خائف بكل معنى الكلمة.. يبدو أنه ذئب عتيق.. يعني هل تريد أن يباغتك الرجل ويُعملَ منك طعنتين قاتلتين..؟ دخلا زقاقاً أكثر حلكة.. اقترب رحمي.. ثلاث خطوات ونصف.. كثيرون هم من جرَّحهم رحمي.. وكانوا أشداء.

دخل الرجل أحد الحمامات.. ورحمي العربجي من خلفه.. خلع الرجل ثيابه.. وكذلك رحمي.. إما الموت.. وإما البقاء.. يجب أن ينهي عمله هذه الليلة.. وأن يتخلص من هذا المتبجح بسرعة.

وبما أن الوقت كان متأخراً.. لم يكن في الحمام غيرهما. قال رحمي في نفسه: «هذا هو المكان المناسب.. الرجل عارٍ تماماً.. ولا يحمل سكينا تحت المنشفة بكل تأكيد».

جلس قريباً من الزاوية التي يجلس فيها الرجل.. كان يريد الكلام بدون سبب، يريد الصراخ بغير داع:

ـ انظر إلي ولك خنزير.. لماذا ترش عليَّ المياه القذرة؟

قال الرجل:

ـ المعذرة.

وانتقل إلى زاوية أخرى.

ـ ولك.. مياه جورتك تصل إلى هنا..

ـ طيب ولك طيب.. سأذهب إلى مكان آخر.

كان رحمي يشتعل غيظاً في داخله.. ولكنه كان خائفاً من ليونة هذا

الرجل.. فالقبضايات القدامى كلهم ليّنون.. وسمع بأنهم أناس محترمون على أكمل وجه.. يصبرون كثيراً، فإذا ما غضبوا.. زيت مفاصلك واهرب.

ـ ولك عجوز لا تضرب الطاسة على الجدار.. لأن رأسي صار منتفخاً كالبالون.

ـ أنت محق يا أخي.. على الرأس والعين.

«العن أمو» شوها الرجل ولك..؟! ذهب حلمي العربجي إلى زاوية الرجل:

ـ اذهب من هنا ولك.. أنا سأتحمم هنا.

ـ على الرأس والعين.. سأستحم في مكان آخر.. تفضلوا.

كان رحمي يرفع صوته مع مرور كل دقيقة:

ـ ولك.. كلب ابن الكلب.. لا تسكب الماء هكذا.. لم يبق عندي ماء.

ـ طيب يا أخي.. استحم أنت أولاً وأنا أستحم بعدك.

كاد رحمي العربجي أن ينفجر. الرجل لا يريد شجاراً حتى أقضي عليه.

ـ اخرج.. ولك اخرج.. هاسسي.. سأغتسل في الحمام لوحدي.

ـ لا تغضب ولك أخي.. لا تغضب.. اغتسل ضاحكاً.. ونعيماً سلفاً.. ها أنا خارج.

عندما كان الرجل يجمع منشفته المبللة يريد الخروج.. أمسك رحمي من ساعده وقال:

ـ ولك أنا بدي أعمل...... بماضيك وبمستقبلك.. وبابنتك.. وزوجتك.. وفرسك.. وجدتك.. وابنتك الرضيعة في المهد..

شتمه.. وبكلمات نابية إلى أبعد الحدود.

قال العجوز ورأسه مطأطأ إلى الأرض:

ـ تكرم يا نمر تكرم.. الله يعطيك العافية.. لتقوم بذلك كله.

ـ ولك.. ألست أنت الرجل الذي دخلت مقهانا وصرخت: «لم يولد بعد من يريد ضربي»؟

ـ نعم أنا هو.

ـ وها أنت هنا لا ترفع صوتك ولا تجيب.

ـ حسن يا ولدي.. هل تقتلني..؟ هل تستطيع ضربي..؟ مادام هذا الرأس اللين على جسدي، وهذه المرونة في سلوكي.. بإذن الله لا يستطيع أحد أن يلمس شعري.

خرج العجوز ودقات حذائه تُدوي.. ورحمي ينظر إليه.

□ □ □

ـ ٥ ـ

سارق الحصالة

ستة أشهر مضت ولا زالت حصالات الهواتف الأتوماتيكية تتعرض للسرقة في شوارع استانبول وأرصفة الميناء.. والمواقف وغرف الهواتف العامة. وكتدبير وقائي لجأت مؤسسة الهاتف إلى شراء هواتف أتوماتيكية جديدة من ألمانية.. وبما أن الحصالات هنا مثبته مع صندوق الهاتف.. أصبحت سرقتها ضرباً من المستحيل.

في هذه المرة صار اللصوص يسرقون الحصالة مع الهاتف وصندوقه.. ولما كانت الهواتف تسرق دائماً من جميع أماكنها في الميناء.. والبريد.. والكاراجات.. كانت الإدارة تضع كل أسبوع هاتفاً جديداً.. ولم تمضِ عليه ليلة حتى يسرق من جديد. فتضطر مؤسسة الهاتف لاتخاذ تدابير وقائية.. فعمدت إلى تشكيل لجنة.. اقترح أحد الخبراء فيها ما يلي:

ـ في المرة السابقة ثبتنا صندوق الهاتف مع الحصالة.. والآن يجب أن نثبت الهاتف والحصالة مع الغرفة مباشرة بشكل لا يتمكن أحد من فصلهم عن بعضهم.

مع أن هذه الفكرة أعجبت اللجنة إلا أن أحدهم قال:

ـ هذا ليس بتدبير!!

ـ ولماذا؟

ـ لأننا جربنا هذه الطريقة ولم تنجح.. قديماً كانت الحصالة هي

الوحيدة التي تسرق.. ولكي نمنع سرقة الحصالة.. ثبتناها بصندوق الهاتف.. وعادوا وسرقوا الصندوق والهاتف مع الحصالة.. والآن أيها الزملاء الأعزاء.. يقترحون تثبيت الحصالة مع الصندوق والهاتف والغرفة.. دون الأخذ بعين الاعتبار قدرة اللصوص على سرقة الحصالة والهاتف والصندوق والغرفة دفعة واحدة.. وسيكون الضرر أكثر.

وارتفع صوت من بين الحضور:

ـ طيب وماذا سنفعل؟

ـ ما يجب أن تقوم به اللجنة.. هو أن تتعاقد المؤسسة مع اللصوص.. وترجوهم ألا يسرقوا الحصالات بعد اليوم.. حيث ستقوم المؤسسة بدفع مكافآت تشجيعية للسارقين.

ـ وما الحاجة إلى ذلك؟ بدلاً من دفع المكافأة لهم نعطيهم رواتب شهرية.. فلنوظفهم عندنا.. لا يا سيدي.. كلامك غير معقول.

ـ أيها الزملاء الأعزاء.. لقد أغفلتم نقطة هامة.. السارقون مجهولون.. يجب القبض عليهم قبل كل شيء.. ومن ثم نعطيهم رواتب شهرية.

ـ ولماذا نعطيهم رواتب شهرية.. بعد أن نقبض عليهم.. عندها نسلمهم للشرطة.

ـ طيب إذا سمع السارق كلامنا هذا.. هل يُعقَل أن يسلم نفسه؟

ـ نحن نتكلم فيما بيننا.. كيف يسمعه السارق؟

ـ ليكن.. يقولون أن للجدران آذاناً.

لنترك مؤسسة الهاتف تفكر وتأخذ تدابير وقائية بهذا الشأن. كان أفراد شرطتنا الذين عرفناهم جيداً والذين أثبتوا كفاءتهم وجدارتهم في القبض على السارقين.. وعدم تركهم يهربون.. قد قبضوا على أحد سارقي الحصالات.

وبما أن نظامنا ديموقراطي.. صارت المعارضة تنمو وتتسع.. وأصبحت جذورها راسخة في المجتمع.. ولأن الدولة كانت تخشى هذا التوسع والانتشار.. كلفت شرطياً بمراقبة كل معارض.. ما أدى إلى انشغال غالبية رجال الشرطة وتعقيد أعمالهم، وأصبح نصيب كل شرطي خمس أو ست مهام دفعة واحدة.

وكانت المهمة الأولى لكل شرطي مراقبة المعارضة عن كثب. أما الثانية فهي القبض على السارقين والهاربين. وفي محطة (حيدر باشا) اشتبه شرطي يقظ بأحد الأشخاص أثناء خروجه من إحدى غرف الهواتف.. و(شرلوك هولمز) هذا لم يستطع الإفلات من قبضة شرطينا اليقظ الذي اشتبه به.. أولاً على الإنسان أن يعي هذه الحقيقة: اثنان ضرب اثنين تساوي أربعة.. فعين الأمن ساهرة ولا يغيب شيء عنها على الإطلاق. وثانياً: لة هرب حتى إلى آخر الدنيا فالعدالة والرقابة تلاحقانه.

كان ذلك الرجل طويل القامة، عريض المنكبين.. ومتوسط العمر، لباسه جيد وأنيق. فتح باب غرفة الهاتف وصار يتطلع ذات اليمين وذات الشمال.. وهكذا أصبح موضع شبهة.. ولم يخرج منها إلا بعد أن قام بعمله المنكر.

قال مراقب الأمن للمعارض الذي كان يراقبه:

ـ أرجوك يا أخي أن لا تتحرك من هنا.. سأتركك لمدة خمس دقائق فقط ثم أعود إليك.

بينما كان الرجل يخرج من غرفة الهاتف ويهبط درج المحطة.. انقض عليه المراقب بقبضته القوية وأمسك به.

ـ ماذا تخفي تحت معطفك؟

بقي الرجل محافظاً على اتزانه بكل رباطة جأش، أما الشرطي الخبير والذي شاهد الكثير من أمثاله.. وخاصة أنه في الليلة ذاتها شاهد بعض

الأشخاص يحمِّلون خزانة أحد المتاجر على شاحنة، وعندما اعترضهم ادّعي السارق دون خشية ولا وجل أنه صاحب المتجر.. وهذا السارق أيضاً ربما سيقول إنه قادم من إدارة المؤسسة.. كي يصلح الهاتف المعطل.

سأله الشرطي ثانية:

ـ أقول لك ما هذا؟

ـ تلفون..

ضحك الشرطي بخبث ودهاء:

ـ تلفون.. ها..؟

ـ نعم.. اشتريته.

أطلق الشرطي عدة نداءات من صفارته، فجاءته النجدة من كل الجهات.. واقتادوا السارق إلى المخفر.. فقال السارق:

ـ لقد تعبت..

أخذ الهاتف الضخم الذي كان قد أخفاه تحت معطفه، ووضعه على الطاولة أمام المفتش وقال سائلاً:

ـ ماذا تريدون مني؟

تهامس رجال الأمن فيما بينهم:

ـ يا له من سارق بارد الدم!

قال المفتش بعد أن ألقى نظرة على ثياب الرجل الأنيق:

ـ إنه سارق محترم.

ـ لست سارقاً.. أنا لم أسرق.

ـ وماذا فعلت إذن؟.. هل ستركب هذا الحمالة الكبيرة على مكتبك، أم على ظهرك؟

ـ يا سيدي عندي هاتفان، أحدهما في المنزل والآخر في المكتب.

ـ ه ه ه ه نما نفستر...

ـ أرجوك أيها السيد المفتش.. هذا الهاتف لا يفيدني بشيء مطلقاً.. ثم أنه غالي الثمن.. غير أني أصبحت مجبراً على شرائه.

وضع أحد الشرطيين إصبعه على صدغه.. وكأنه يقول: «ترللي» /هل أنت مجنون؟/.. قال المفتش للسارق:

ـ لا تتظاهر بالجنون.. أترى هذا السوط..؟ إنه يجعل العاقل مجنوناً، والمجنون عاقلاً.

قال الرجل ثانية:

ـ أرجوك يا سيادة المفتش.. لا تقل شيئاً قبل أن تعرف من أنا..

ـ لا تخف، بعد قليل نتعرف على شخصيتك من خلال أرشيف البصمات والسوابق.

ـ أنا لا سابقة عندي.

ـ يا يا يا.. إذن أنت حديث العهد بهذه المهنة؟

ـ أنت مخطئ.. كل الناس يعرفونني..

ـ ما اسمك؟

ـ (علوي ياتكين أي).. ابحثوا في دليل الهاتف.. تجدون اسمي فيه.

وحقيقة.. كان للسيد (علوي ياتكين أي) ثلاثة أرقام هواتف باسمه.. رقم منزله.. ورقم مكتبه.. ومستودعه.. قال المفتش..

ـ إذن.. بدأت الآن بالتزوير ها..؟ تعطينا اسماً غير اسمك كي تنقذ نفسك من أيدينا..

بعد تدقيق قصير.. اتضح أن الرجل هو حقيقة (علوي ياتكين أي)

وليس له سوابق أبداً.

قال شرطي قديم:

ـ لقد مرَّ عليَّ كثيرٌ من هؤلاء.. يظهرون لك كأنهم من طبقة راقية وهذا مرض يسمى (كليوبتوماني).. ومهما يكونوا أغنياء.. لا يستطيعون العيش دون السرقة.

قال الرجل ثالثة:

ـ هذا الهاتف ملكي.. ماذا تريدون مني؟ دفعت ثمنه.. اشتريته..

قال المفتش الذي عرف مركز الرجل وغناه:

ـ يا سيدي.. إذا بقيت تردد هذه الكلمة.. وتقول اشتريته.. سأضطر إلى تحويلك إلى الطب العدلي.. للمشاهدة والمعاينة.

ـ ولماذا؟

ـ هل سمعت أن أحداً يشتري هاتفاً عمومياً؟

ـ هاه.. أسألتني هذا السؤال كي أجيبك..؟ أقول لكم اشتريته.. أفلا تصدقونني؟ أخبرني أحد الأصدقاء بأن هذه الهواتف قد تم شراؤها من المؤسسة بمبلغ ثلاثمائة ليرة.. وبما أنني أعمل تاجراً.. وأجري أكثر من ثلاثين اتصالاً هاتفياً في اليوم الواحد.. وعندما أكون في الشارع.. أتحدث مثل الناس بهذا الهاتف العمومي.

قال المفتش:

ـ طبعاً..

ـ ليس طبيعياً أبداً.

ـ ولماذا لا يكون طبيعياً؟

ـ أرجو أن تتفضلوا معي إلى إحدى غرف الهاتف لتروا هل يعمل هكذا أم لا..

ذهب المفتش مع الرجل برفقة شرطيين إلى غرفة هاتف في المحطة.

قال الرجل:

ـ لندخل معاً وتروا بأنفسكم.

دخل الأربعة غرفة الهاتف الصغيرة بصعوبة.. قال الرجل للمفتش:

ـ أرجو أن تتصل الآن بمخفرك.

رفع المفتش سماعة الهاتف الآلي.. ووضع في الثقب خمسة وعشرين قرشاً.. وأدار رقم المخفر، وقال:

ـ مشغول..

وأعاد السماعة ثانية إلى مكانها.

ولما لم يجبه أحد.. كان من المفروض أن تعود قطعة النقود إلى صاحبها.. ولكنها لم تسقط.. قال المفتش:

ـ العن أمو..

قال الرجل:

ـ أرجو أن تتصل بمديرية الأمن.

وضع المفتش قطعة أخرى من فئة خمسة وعشرين قرشاً ورفع السماعة..

ـ إنهم لا يجيبون..

أعاد السماعة ثانية ولم تسقط قطعة النقود.. قال المفتش:

ـ العن أمو..

وضرب الحصالة بيده وحركها بقوة.. فلم تسقط قطعة المعدن..

ـ اتصل بمديرية الهاتف.

بحث المفتش في دليل الهاتف الموضوع على رف الغرفة، وأخذ رقم

مديرية الهاتف.. ووضع قطعة معدنية من فئة خمسة وعشرين قرشاً داخل الحصالة الآلية وأدار الأرقام وقال:

ـ أصوات غريبة تصدر عن الهاتف..

وضع السماعة.. لكن القطعة المعدنية وللمرة الثالثة.. لم تسقط.. عمد المفتش الذي غضب كثيراً إلى ضرب العلبة، وهزها بقوة..

قال الرجل:

ـ تمهَّل يا سيدي.. منذ خمس سنوات وحتى الآن وأنا أحاول الاتصال بهذه الهواتف العمومية.. أكثر من عشر مرات يومياً.. ولا أستطيع التحدث مع أي رقم أطلبه.. ولا يعود لي رسم الاتصال.. وهذا يعني أنني أدفع ليرتين ونصف يومياً.. أي ما يساوي خمساً وسبعين ليرة في الشهر.. وسبعمائة أو ثمانمائة ليرة سنوياً.. وخلال خمس سنوات يصبح المبلغ كبيراً جداً.. أنا الآخر غضبت مثلك.. ضربته بقبضتي.. هززته.. ولكن دون جدوى، ومالي لم يرجع لي.. لقد تعبت كثيراً في جمعه.. في النهاية فككت هذه الحصالة كما هي.. إنها لا تساوي ثلاثمائة ليرة.. لقد دفعت ثمن هذه العلبة أكثر من عشرين مرة.. ولن أتمكن من شراء قطعة إلا بهذه الطريقة..

قال المفتش:

ـ نعم.

قال الرجل:

ـ أريد أن أقول شيئاً.. الجميع يعلم أن مؤسسة الكهرباء تخسر، وكذلك مؤسسة المياه، وشركة الترامواي، وشركة الغاز، والأنفاق، ومؤسسة النقل الداخلي.. جميع المؤسسات الرسمية تخسر.. أما المؤسسة الوحيدة التي تربح هي مؤسسة الهاتف.. فهل عرفتم الآن سبب ربحها..؟!

خرج المفتش والشرطيان من غرفة الهاتف.. وبقي الرجل في الداخل يداعب الحصالة محاولاً فتحها..

قال المفتش للرجل:

ـ ماذا تفعلون يا أخي.

قال الرجل:

ـ أفكها.. هذه العلبة لي أيضاً.. عندي ثلاث علب في المنزل.. وصباح هذا اليوم فككت واحدة.. وهذه هي الخامسة. وحتى أستعيد ما أنفقته دون أي...... عليَّ أن أنتزع حصالتين أخريين.

قال المفتش:

ـ العلبة التي فككتها.. تحوي خمسة وسبعين قرشاً.. من مالي.

ذهبوا معاً إلى المخفر.. وعندما فتشوا بيت الرجل وجدوا ثلاثة هواتف أخرى.. نظموا الضبوط وأحالوه مخفوراً إلى القضاء.. صبيحة اليوم التالي. كانت افتتاحيات الصحف: «تم القبض على اللص سارق الهواتف منذ شهور طويلة».

□ □ □

- ٦ -

رياضة الإصبع

إنسان أحترمه كثيراً لكبر سنه.. علَّمني في المرحلة الإعدادية.. وصار بعد ذلك صديقاً لي.. تقابلنا في النفق.. وأثناء سيرنا بقينا نتحادث حتى حي التقسيم.

وبقدر ما نحن أصدقاء.. كنا نشرب الخمر معاً.. حتى أنه إذا ثمل لا يتفوه بكلمات نابية على الإطلاق.. دائماً متَّزن وعاقل.. يتحدث بهدوء.. يُسر كثيراً من يصغي لحديثه. ألا يقولون «رجل متَّزن»؟ إنه هو نفسه.. تحدَّث عن مشاكل الوطن الهامة.. يطرح أفكاراً لحلّ بعض الأزمات..

في تلك الساعة من النهار تكون الحرارة مرتفعة في (باي أوغلو).. ويشتد فيها الزحام.. أما عن النساء.. فحدّث ولا حرج.. آه منهن.. شئت أم أبيت.. لا بدّ أن تحتكّ يدك، أو ركبتك، أو كتفك بنعومة أجسادهن. بعد أن ابتعدنا عن النفق مسافة مائة متر تقريباً.. قال أستاذي:

ـ هل تريد أن تقوم برياضة الإصبع؟

نظرت في وجهه.. كما في كل مرة.. فلمست أنه حتى ولو كان في أوقات فرحه لا تصل كلماته إلى أذنيه.. قلت له:

ـ آمان يا أستاذ..

ـ ماذا هناك..؟ هل قمت مرة برياضة الإصبع؟

قلت في نفسي.. ربما يريد امتحاني.. أو استدراجي إلى ما يريد.. قلت له:

ـ لم أفعلها أبداً.

ـ أقول لك افعلها.. هذه وصية مني إليك.

ـ ماذا أفعل يا أستاذ؟

ـ رياضة الإصبع.

نظرت في وجهه ثانية.. فلم ألحظ أية ابتسامة على وجهه.. قال:

ـ هناك يشعر الإنسان أنه من مستوى رفيع.. في كل مرة أمر من (باي أوغلو) أمارسها.

ـ لا تقل يا أستاذ.

ـ بالله عليك جربها أنت أيضاً.. وسوف ترى أنك لن تشبع من طعمها أبداً.

لا بد أن يكون عقل الأستاذ وأخلاقه قد فسدا.. كنا نعرفه إنساناً سوياً.. خلوقاً وشريفاً.. كنا نسير ونحن نصطدم بالنساء. قلت:

ـ أليس عيباً يا أستاذ؟

ـ ولماذا يكون عيباً؟

ـ بالله عليك: هل فعلتها يا أستاذ؟ أليس عاراً علينا ممارستها ونحن في هذا العمر؟!

ـ لا.. لا.. أنت تفكر بشكل خاطئ تماماً.. ليس للرياضة عمر أبداً، فلكل عمر رياضة معينة.. حتى الخامسة والعشرين.. يمارسون الرياضة العنيفة.. وبعد ذلك الرياضة الخفيفة.. كالتنس مثلاً.. والبينغ بونغ.. وعندما يتقدمون في السن يمشون.. كم عمرك الآن..؟

ـ واحد وأربعون..

ـ هاه.. تمام.. عليك منذ الآن فصاعداً أن تمارس رياضة الإصبع على الدوام.. فإن جربتها مرة واحدة فقط.. لن تستطيع الابتعاد عنها مطلقاً.. أنا الآخر قلت مثلك هذا عيب وغير ممكن.. ولكن أصدقائي أصرّوا علي أن أمارسها.. مرة واثنتين.. فاعتدت عليها كثيراً..

لا تسلني.. لقد احترت في أمره.. أنظر في وجهه وأقول: هل يسخر مني؟ غير معقول.. هل يمازحني؟ لا هذا ليس مزاحاً. هل انقلبت المفاهيم..؟! الرجل الذي عرفته رصيناً ومحترماً.. شريفاً وأخلاقياً.. تُراه خلاف ذلك..؟ إذن أستاذي من أصحاب السوابق.. وربما صار هكذا مؤخراً..

ـ كلام جيد يا أستاذ.. ولكن أنا إنسان متزوج ومستقر.

ـ نعم أنت صادق.. لو كنت شاباً عازباً.. يمكن أن أطيعك.. فهذا (قفطان) أو لباس فُصّل للمتزوجين فقط.. ولست بحاجة أن تضغط على نفسك أبداً.. أو إلى استعمال القوة.. جربها مرة.. وسترى.. كم هي سهلة..!

ـ أرجوك يا أستاذ..

ـ والله..

قلت له:

ـ أستأذنك.. كنت أريد المرور على أحد الأصدقاء في هذه المنطقة..

إذ لم يكن لدي سوى هذه الحيلة.. كي أتخلص منه.

قال:

ـ ألم تقل إنك صاعد إلى (تقسيم)؟

وأمسكني من يدي..

ـ لن أتركك قبل أن تقوم برياضة الإصبع.

قلت:

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك يا أستاذ.

ـ جرب مرة.. فإذا لم تعجبك.. لا تفعلها ثانية.

ـ ولك يا أخي ربما رآنا أحد معارفنا وشهَّر بنا.

ـ وبماذا يشهِّر بنا..؟ الرياضة تعطي النشاط والحيوية للإنسان. وأي عيب في أن يمارس الإنسان الرياضة؟.. ثم أن رياضة الإصبع أصبحت زيّاً دارجاً.. الجميع يقومون بها.

ـ اترك ولك أستاذ.

ـ يا روحي ماذا سيحدث جراء ممارستها مرة واحدة؟

ـ لن أفعلها.

ـ لن تودي بك إلى الموت يا أخي.

ـ لربما كانت المرأة إحدى معارفنا..

ـ لتكن.. حتى النساء يقمن بذلك.

ـ ماذا يفعلن؟

ـ رياضة الإصبع.

ـ آمان.. بالله عليك يا أستاذ.. هل جننت؟ هل يعقل أن تقوم الأنثى بهذا العمل؟

ـ يبدو أن خبرتك في الحياة قليلة.. جميع النساء يقمن بذلك.. وخاصة نساء الطبقة الراقية (سوسيتا).. كلهن يمارسن رياضة الإصبع.

ـ وإذا ما رآنا البوليس؟

ـ ليكن.. حتى البوليس يقومون بذلك.

ـ أليس ممنوعاً؟

ـ يا روحي.. وهل للرياضة ممنوعات؟ أما إذا قمت بمحظور ما.. فالأمر يختلف.

ـ وهل هناك محظور في هذا؟

ـ نعم..

ـ وإذا قبضوا علينا..؟

ـ لا.. لا.. الآن كل شيء حُرّ.. هذا كان في الماضي.. رياضة الإصبع الآن حرة في كل مكان.. وصدر بذلك قرار من المحكمة يسمح برياضة الإصبع رسمياً.

لا أصدق ما أسمعه.

ـ يا أستاذ.. هل تجد الأمر منطقياً؟

ـ والله.. أنا الآخر كنت أفكر قديماً مثلك.. أما الآن بعد أن مارستها وجدتها منطقية جداً.. أجزى الله من اخترعها خيراً.

صرخت:

ـ توه ولك.. توه.. أمعقول هذا الكلام.. والله لقد صدقوا عندما قالوا فسدت الأخلاق.. لا عتب على العامة.. إذا كان الأستاذ يفعل هذا.

ـ ولك أخي.. هذا الأمر لا علاقة له لا بالأستذة ولا بالأخلاق.. لو صرت وزيراً للتربية والتعليم لجعلت رياضة الإصبع مادة إجبارية في المنهاج.. في رياضة كرة القدم تكسر رجلك.. في رياضة السباحة تغرق.. كل الرياضات فيها مخاطر.. أما هذه الرياضة فليس فيها شيء على الإطلاق.

ـ هل تقول: تسمح بتدريسها رسمياً في المدارس؟!

ـ بكل تأكيد.

ـ طيب.. وما فائدتها؟

ـ قبل كل شيء.. تقوى أيدي الذين يمارسونها.. ويكسبهم مهارة في العمل وسرعة في الأداء.. ثم إنها تنمي العقل وتعلم الدقة في التفكير، وكيف تستعمل إصبعك.

صرخت في وجهه:

ـ اسكت ولك أستاذ.

بلغنا السينما (...).. ونحن نتحدث هكذا.. دخل الأستاذ في زقاق وقال:

ـ تعال.. هنا..

ـ ماذا هناك؟

ـ رياضة الإصبع.

ـ يعني في مكان مغلق؟

ـ طبعاً هذا الأمر لا يكون في مكان مكشوف.

ـ وإذا ما قبضوا علينا؟

ـ أقول لك إنها حرة..

كان الفضول قد استحوذ عليّ.. وخاصة أن ممارستها في مكان منعزل جذب انتباهي وفضولي؛ فالإنسان ينقاد بسهولة إلى العمل اللاأخلاقي.. وكما يقولون: «تجنب أقران السوء».. وكنت أقول في نفسي : «أول مرة وآخر مرة».

دخلنا إلى قبو ونزلنا تحت الأرض سبع أو ثمان درجات.. قاعة واسعة.. داخلها أناس كثيرون.. رجال ونساء وفتيات.. والعين لا ترى العين الأخرى لكثافة دخان السجائر.. ولشدة الصخب والضجيج لا تسمع الأذن الكلمة الخارجة من الفم.. في الداخل توزعت ماكنات كثيرة

للقمار.. أحاط بكل منها مجموعة من الأشخاص.. وقفت مع الأستاذ حول ماكنة.. بدأ الأستاذ بالشرح.

ـ هذه هي رياضة الإصبع.. انظر.. هناك عدة ثقوب.. سترمي من الثقب الخارجي للآلة عشرة قروش دفعة واحدة.. وبعض الأحيان اثنتان، أو واحدة..

في ذلك اليوم وضعت ستين قطعة معدنية من ذوات العشرة قروش.. فلم تسقط منها قطعة واحدة.. غير أني اعتدت على هذه الرياضة تماماً.. رياضة الإصبع.. أذهب في الأسبوع مرة أو مرتين إلى هناك.. وألعب.. فإذا حدث أن شُغلت عن الذهاب إلى (باي أوغلو) بعمل ما.. استبدلت هذا العمل بآخر لأذهب إلى اللعب برياضة الإصبع.. وكما تعرفون، هناك هواتف كثيرة منتشرة في المحطات والبريد والميناء وإدارة مؤسسة الهاتف.. كنت أذهب إلى هذه الغرف وأرمي قطعة معدنية من ذوات الخمسة والعشرين قرشاً في حصالة الهاتف، وأدير القرص لا على التعيين.. وكما تعلمون، بما أن الزبون لا يستطيع التحدث عن طريق هذه الهواتف لرداءتها.. ولا تسقط القطعة المعدنية التي رميتها. والآن حتماً ستقولون في أنفسكم:

ـ إذا كان الأمر هكذا لماذا تلجأ أثناء التحدث إلى غرف الهاتف؟

حتماً كي ألعب رياضة الإصبع.. لأن حصالة هذه الهواتف لا تختلف في شيء عن ماكنات رياضة الإصبع.. فالقطعة التي تضعها لا تعود أيضاً.. كما هو عليه الحال في الهاتف.. ولكن هذه الثانية، أي الهاتف، تغيظني كثيراً.. وتكلفني أكثر.. وأتحمل كل ذلك من أجل رياضة الإصبع.

ملاحظة:

عندما تم استيراد هذه الماكنات من أمريكا.. سرت شائعة بأن الحكومة

لن تسمح بها على أنها ماكنات قمار.. بعد ذلك.. لجأ التجار إلى استصدار قرار رسميّ على أن هذه الماكنات ليست للقمار.. بل لرياضة الإصبع.

□ □ □

- ٧ -

رجل أعمال

نشرت الصحف في باب إعلاناتها هذا الإعلان الصغير: «رجل أعمال أمريكي يريد عقد اتفاقيات مع الشركات والمؤسسات التركية، العنوان: SIEGMAN CHASE O. XL (....) MICHIGAN USA».

قرأ (صالح كوب أوغلو) هذا الإعلان ولم يتوقف عنده كثيراً.. و(صالح كوب أوغلو) هذا، رجل أعمال.. تراه موجوداً حيثما يتوفر الربح الزائد.. يعمل بالتعهدات الكبيرة.. كالعمارات الضخمة والجسور، وبأعمال أخرى مثل تجارة الجلود والفستق. ويستورد بضائع كثيرة من بلدان مختلفة.. وكما يقال: يحتكرها لنفسه من إبرة الخياطة حتى حجر الطاحون. وبما أن جدّ جده كان غنياً ويملك كثيراً من الذهب.. احتفظ به ضمن علب صغيرة وكبيرة.. وكانت العائلة تسمى آنذاك (عائلة كوب زادلر).. وقد حوَّل صالح الذي يعتبر سليل تلك العائلة، عندما جاء إلى استانبول، اسم عائلته من (كوب زادلر) إلى (كوب أوغلو).

لا أحد يعرف شيئاً عن مشاكل (صالح كوب أوغلو).. سوى كاتبه الأرمني (أوسيب). كان (صالح كوب أوغلو) على وشك أن يعلن إفلاسه.. الذي سيحدث ضجّة كبيرة؛ حيث ستفلس معه مئات الشركات والمعامل التي يملكها. ومع هذا.. كانت مئات الأطنان من البضائع تتكدس على أرضية مستودعاته الكثيرة.. مَعرَّضة للتلف والتعفن يوماً بعد يوم.. ولا أحد يعلم بالأخطار الناجمة عن ذلك.

لم تسد هذه البضائع والأموال المتراكمة.. جزءاً من عشرة من ديونه، وخاصة أن البضائع لم تجد من يشتريها.

خرج (صالح كوب أوغلو) عند الساعة العاشرة من عمارته.. وذهب إلى مكتبه بسيارته الخاصة، وقال لكاتبه (أوسيب):

ـ هل من أخبار..؟

هزَّ (أوسيب) رأسه بالنفي.

قال (صالح كوب أوغلو) مبتدئاً كلامه:

ـ نشر أحد رجال الأعمال الأمريكيين إعلاناً في الصحف.. معرباً عن رغبته بالتعرف على رجال الأعمال في تركيا.

أصغى (أوسيب) بدقة إلى كلمات معلمه، وكأنه كلب اشتمَّ رائحة أرنب من بعيد وقال:

ـ في أية جريدة؟

قدَّم (صالح كوب أوغلو) الصحيفة التي قرأ فيها الإعلان إلى كاتبه. قرأ (أوسيب) الإعلان الصغير عدة مرات، وقال:

ـ لنكتب رسالة على الفور.

قال (صالح كوب أوغلو) بتأفف:

ـ آمان بالله عليك يا (أوسيب) ربما يكون رجلاً بدون عمل.. أو أنه يعمل بتجارة صبغة الشعر، وربما يكون ممن يقولون: «منك الرأسمال ومني العقل».

كان (أوسيب) يتقن أربع لغات، إلى جانب لغته الأرمنية والتركية، ويكتب الرسائل التجارية منذ عشرين عاماً خلال عمله في شركة (صالح كوب أوغلو).

ـ لا تغفل هذا الأمر يا سيد (كوب أوغلو).. نحن لم نقم بكل هذه

الأعمال الكبيرة إلا بواسطة هذه الرسائل التجارية.

قال (صالح كوب أوغلو):

ـ نعم.. وبسبب تلك الرسائل، وكما ترى، نحن على وشك الغرق وإعلان الإفلاس.

كان كلام معلمه صحيحاً.. ومع ذلك كتب رسالة إلى الأمريكي (مستر شيز) ووقع عليها (صالح كوب أوغلو) دون اكتراث.

بعد عشرة أيام وصلت رسالة جوابية للسيد (كوب أوغلو) من (المستر شيز) يشكره فيها على اهتمامه، ويقول إنه سيلتقيه في أقرب فرصة ممكنة.

لم يطل الوقت حتى جاء رجل الأعمال الأمريكي (مستر شيز) إلى تركيا. فزادت آمال (كوب أوغلو) كثيراً؛ فلربما تكون لديه بعض المشاريع. ولذلك قرر السيد (كوب أوغلو) استضافة (مستر شيز).. وأكرمه كثيراً.

قال (مستر شيز):

ـ يا مستر (كوب أوغلو).. لا أستطيع البقاء هنا أكثر من يومين، ولهذا.. لنبدأ بالحديث عن العمل الذي سنقوم به.

ـ وأي الأعمال تقومون بها؟

ـ لا فرق عندي.. المهم أن يكون عملاً.

ـ أسعدتني كثيراً.. أنتم أيضاً مثلنا مستعدون للقيام بكل الأعمال. الآن أستطيع أن أبيعك كمية من الدخان.. وكما تعرفون أن دخاننا لا..

قطع (مستر شيز) كلامه وقال:

ـ الجميع يعملون بهذه التجارة يا مستر (كوب أوغلو).. هناك آلاف الشركات التي تتاجر بالسجاير.

ـ إذن أبيعك فستقاً.

هذه الفكرة أيضاً لم تلق تجاوباً لدى (مستر شيز).

- وما رأيك بالـ (البلموط)..؟ ماذا تقولون..؟ الآن أملك ثمانية آلاف طن من (البلموط).

- يجب أن يكون عملاً (أوريجينال) مميَّزاً.

- بالتأكيد لن ترفضوا تجارة الجلود.. عندي مستودع مملوء بها.

.. أية فكرة يطرحها (كوب أوغلو) لم تكن تعجب (مستر شيز).. حديد.. خردة.. فاصولياء يابسة.. معلبات سمك.. سلاحف.. حتى أنه اقترح عليه تجارة الأفاعي ولكن لم تعجبه أيٌّ من هذه الطروحات. قال (صالح كوب أوغلو):

- إذن.. ومع الأسف الشديد لن أستطيع التعامل معك.

ضحك (مستر شيز) وقال:

- جئت إلى هنا كي أتفق معكم على عمل ما.. هل تسمحون لي بزيارة مستودعاتكم؟

قال (صالح كوب أوغلو) دون اكتراث:

- هاي.. هاي.. تفضلوا.

ركبوا السيارة.. وأقلتهم أولاً إلى المستودع الموجود في (تاهتا قلعة) حيث تم تخزين ألفي شوال من الفستق.. ومن هناك ذهبوا إلى العنابر أو المستودعات الموجودة في (سيركجي) حيث تكدست أطنان من الخضراوات المجففة. أما (مستر شيز) فلم يعجبه شيء على الإطلاق.. ومن هناك ذهبوا إلى المستودعات الضخمة الموجودة خارج (توب كابي)، والتي تضم أربع مستودعات.. في إحداها.. كميات كبيرة من الزبيب والتين المجفف.. وامتلأ الثاني بالبالات الضخمة من الخرق البالية.. جمعها السيد (كوب أوغلو) ليبيعها خارج تركيا.. ومن هناك دخلوا مستودع الزيتون الواسع.

كانوا على وشك العودة.. ووجه (صالح كوب أوغلو) أوشك أن يقطر دماً لأنه لم يستطع أن يبيع شيئاً. والأمل الوحيد الذي بقي متمسكاً به هو أن يحصل على بعض الأموال من رجل الأعمال الأمريكي ليتمكن من تحريك نفسه قليلاً. وفيما كانوا يصعدون إلى السيارة أشار (المستر شيز) بإصبعه إلى المستودع الرابع قائلاً:

ـ ماذا يوجد في هذا المستودع يا مستر (كوب أوغلو)؟

ـ ليس فيه ما يسر النظر.. فيه أشياء لا تساوي شيئاً..

وسار (مستر شيز) نحو المستودع الرابع متحدياً رغبة (كوب أوغلو) الذي لم يرد أن يريه ما في داخله. وقف (كوب أوغلو) و(أوسيب) ومدير المستودع أمام (مستر شيز) محاولين منعه من دخول المستودع.

ـ لا يوجد شيء هناك يا (مستر شيز).

غضب (صالح كوب أوغلو) كثيراً من تصرفات رجل الأعمال الأمريكي الذي أصرّ على دخول المستودع.

ـ يا (مستر شيز).. لا يوجد شيء أخبئه عنك.. وليس فيه ما يستحق البيع.. وإلا لكنت أطلعتك عليه.

استند (مستر شيز) على باب المستودع وقال:

ـ مستر (كوب أوغلو).. أنا رجل أعمال.. وأنفي يشتم الأشياء جيداً.. ما هذه البضائع الموجودة هنا؟

كان (أوسيب) ومدير المستودع يضحكان.. قطع (صالح كوب أوغلو) سؤال رجل الأعمال الأمريكي وقال:

ـ الروائح التي تزور أنفك يا (مستر شيز) ليست زكية ولا طيبة.

وعندما أصر الرجل الأمريكي على عناده قائلاً:

ـ فلندخله إذن.

قال (صالح كوب أوغلو) بغضب وبلغة تركية حادة لمدير المستودع:

- افتح المستودع ليراه هذا الرجل.

عندما فُتح المستودع وإذا برائحة كريهة تنبعث من كل جانب. أغلق الجميع أنوفهم بأيديهم ما عدا الأمريكي. كانت البراميل والشوالات والسلل الكبيرة والأكياس المتنوعة متراكمة متداخلة فوق بعضها البعض.. وبواقي الصفائح الصدئة قد سالت على الأرض. هنا اضطر (صالح كوب أوغلو) إلى التوضيح:

- كان هنا ألفا عبوة مملوءة بالخضراوات الصالحة.. عندما طلب منا الإيطاليون طنان من الحلزون.

كان (مستر شيز) يصغي باهتمام زائد.. أتمّ (كوب أوغلو) حديثه:

- فاستدعينا بعضاً من الغجر الموجودين في استانبول.. وطلبنا منهم أن يجمعوا لنا الحلزون المتوفر لدينا في هذا المستودع.

قال (أوسيب):

- وكان هنا قبل ذلك.. أربعة أطنان من المرملات.

قال (صالح كوب أوغلو):

- ها ها نعم.. قبل أن نخزن الحلزون كان عندنا أربعة أطنان من المرملات.. لم نستطع بيعها بأي شكل من الأشكال.. فقد أصيبت بالتلف وامتزجت مع الخضراوات، مما اضطرنا إلى وضع الحلزون والعبوات في مستودع للتهوية أو البراد.. وعندها قلنا في أنفسنا: لنتركها بعض الوقت لأن الأسعار بارتفاع تدريجي.. وبقيت على حالها. انظر إلى هذا الحظ يا (مستر شيز).. لقد فوجئنا بالحلزونات تخرج من السلال الكبيرة، وتدخل بين المرملات والخضراوات.. فغرقت كلها وماتت.

أما فضول واهتمام (مستر شين) كانا يزدادان تباعاً. فسأله:

ـ ما نوع المرملات؟

قال مدير المستودع:

ـ نصفها مربى التوت الإفرنجي، ونصفها مربى المشمش.

قال (صالح كوب أوغلو):

ـ ليكن ما يكون.. ألا تشتم الرائحة..؟ لقد فسدت كلها.

وقال (أوسيب):

ـ لم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. فالسماد الذي استوردناه من السويد اختلط مع هذه التشكيلة.

قال مدير المستودع:

ـ لست المسؤول، لقد حصل هذا الشيء في زمن الموظف القديم.

قال (كوب أوغلو):

ـ نعم.. في ذاك الوقت.. كانت المستودعات مليئة.. فقد استوردنا طنين من السماد الصناعي.. فوضعوها فوق الخضراوات.. وعندما فسد السماد بسبب الرطوبة الزائدة.. اختلط بالخضراوات.

لقد وجد الرجل الأمريكي عملاً رائعاً.. كان يفرك يديه ببعضهما من شدة الفرح.

ـ هذا جميل يا مستر (كوب أوغلو).. هذا جميل..

ـ هل تقول جميل..؟ أوَ تسخر مني؟

ـ أما من شيء آخر اختلط بهذا المنقوع؟

قال (أوسيب):

ـ نعم هنالك المخللات التي أحضرناها من مدينة (نيغدا).. وبسبب

صدأ الصفائح واهترائها، امتزجت مياه المخلل بهذا المنقوع.. وتعفن الخيار والملفوف لبقائه دون ماء.

قال (صالح كوب أوغلو):

ـ نحن بحاجة لمبالغ طائلة لنتمكن من تنظيف هذا المكان يا (مستر شيز).. لو رأت البلدية هذه الأشياء لكان الأمر خطيراً جداً.

قال (أوسيب):

ـ هذه القاذورات بحاجة إلى ثلاثين ألف ليرة.. كي نرفعها من مكانها ونتخلص منها.

وعندما كانوا في طريقهم إلى السيارة قال (مستر شيز):

ـ ألم أقل لكم إن أنفي يشتم الروائح على أكمل وجه.. أعتقد الآن أننا سنقوم بعمل جيد.

قال (كوب أوغلو) لكاتبه الأرمني بالتركية:

ـ هذا الرجل مجنون حتماً!!!

عندما وصلوا إلى المكتب.. سألهم (مستر شيز):

ـ كم تعطوني مقابل تنظيف مستودعكم؟

ـ لن نقوم بتنظيفه الآن.. لأنه بحاجة إلى وقت طويل.

ـ أنا أقوم بذلك مقابل مبلغ صغير.. ولكن أريده نقداً.. هل تعطونني مبلغ خمسة آلاف ليرة بعد عام من الآن، وأقوم بتنظيفه على أكمل وجه؟

نظر (كوب أوغلو) و(أوسيب) في عيون بعضهما..

ـ أنا أقبل.

قال (مستر شيز):

ـ لنكتب عقداً على الفور.

بعد أسبوع من التوقيع على العقد وضعت المواد الممتزجة ببعضها في صفائح جديدة، وحملت على باخرة كي ترحل إلى أمريكا.

قال (مستر شيز) عند مغادرته استانبول:

ـ أشكركم يا سيدي لأنكم تسببتم بربح عشرة ملايين من الدولارات. ما هي خسارتكم من هذه المواد التالفة؟

ـ أكثر من مليون ليرة.

ـ ستربح أكثر بكثير من هذا المبلغ الذي خسرته.

بعد وصول (مستر شيز) إلى أمريكا بشهر واحد.. ظهرت في إحدى الصحف مقابلة مع الفنانة الجميلة والمسماة (الخرطوشة الصفراء) والتي أقامت الدنيا وأقعدتها لهول جمالها حيث سألها الصحفي:

ـ ما هو سر جمالك؟ من أين لك هذا الجمال النادر؟ ماذا فعلت حتى سلبت الرجال عقولهم؟

فكان جواب الخرطوشة الصفراء قصيراً جداً.. وبسبب هذا الجواب القصير قبضت أكثر من عشرة أضعاف ما تقبضه مقابل مشاركتها في صنع فيلم. أما جواب (الخرطوشة الصفراء) فكان:

ـ كنت فتاة قبيحة.. وكان الرجال يهربون مني ويشمئزون من منظري. حتى الفتيات كن يسخرن مني.. كان جلدي مليئاً بالبثور، وكان هناك امرأة عجوز عمرها مائة وعشرون عاماً من هنود أمريكا الحمر، ركبت لي دواءً دهنت به جسمي، ولا زلت أستعمله.. فأصبحت هكذا.

ـ هل تذكرين لنا ذلك الدواء؟

طبعاً أذكره لكم.. لتستفيد الإنسانية مني بعض الشيء.. إنه مهروس الخضراوات ومربى المشمش، ومعجون الحلزون، وماء الخيار المحمض

وعصير الملفوف المعفن (المخلل).. وبعد ذلك وضعت مادة أخرى لا أعرفها.

لقد دفع لها (مستر شيز) آلاف الدولارات لأنها ذكرت هذه الأشياء.

بعد يومين من نشر المقابلة، نشرت إحدى الصحف تحليلاً علمياً لأحد الأطباء المشهورين يقول فيه: إن ماء الخيار المحمض مع الملفوف المعفن يغذي بشرة الإنسان ويطريها، لأنه يحوي كميات من فيتامين (ك).. ولم تمض عشرة أيام حتى غزت الدعايات الكبيرة لكريم (LOVE SEX)، وبودرته، والكريمات، وزيوت الشعر أسواقَ التجميل. وأصبحت هذه المواد من أغلى المواد في العالم؛ زجاجة صغيرة من (LOVE SEX) بعشرة دولارات.. وتهافت عليها الناس من كل حدب وصوب.

كانت الصحف في كل أنحاء العالم تؤكد أن الفتيات لم يصبحن جميلات وفنانات إلا بعد استعمالهن هذه المواد.. وكان في كل علبة وصفة تتضمن شرحاً علمياً دقيقاً لأطباء مشهورين، ومحتوياتها: ماء الخيار المحمض، معجون الحلزون، الملفوف المعفن، مربى المشمش، مربى التوت الإفرنجي.

كان (صالح كوب أوغلو) على وشك إعلان إفلاسه.. ولا يمكن لأي عمل في الدنيا أن ينقذه من هذا الإفلاس، لكن ذات يوم وصلته رسالة من أمريكا.. من (مستر شيز).. يقول فيها إنه جعله ممثلاً لشركة (LOVE SEX) في الشرق الأوسط، والشرق الأدنى.

واليوم (صالح كوب أوغلو) يكدس الملايين فوق ملايينه.

□ □ □

ـ ٨ ـ

الرجل الأوركسترا

بعض الناس موهوبون.. معارفهم واسعة.. يتقنون أعمالاً كثيرة. وكما يقول المثل: «تحت كل إصبع من أصابعهم تنام معرفة». أما أنا فلا أملك سوى عشرة أظافر من الأصابع العشرة التي أملكها. لن أكذب عليكم.. بعض الأحيان أستعمل أصابعي (لقرص) النساء في الأماكن العامة المزدحمة.. ولكن هذه المعرفة لا تحول دون أن أنال قتلة تعجبكم بين الحين والآخر.. فمعرفتي وشطارتي تنحصران في أنفي ولساني؛ بواسطة أنفي أعزف المزمار بمهارة، وبلساني الذي أضربه على خدي.. أخرج صوتاً جميلاً وغريباً. حيث لا أحد يقوى على مضارعتي بهذا العمل.

ولكن العيش بمزمار الأنف ودفّ اللسان.. لا يتوافران دائماً.. فأبقى جائعاً أحياناً لأن الموسيقى والفن لا يوصلان أصحابهما إلى المستويات العالمية. لم أترك مكاناً إلا وقصدته بحثاً عن عمل، وعندما كانوا يسألونني:

ـ ما هي الصنعة التي تتقنها؟

كنت أجيبهم كما يجيبهم كل الناس:

ـ أعمل كل شيء.

أنا مع العاملين في كل مكان. وبما أن لكل إنسان في هذه الدنيا عملاً يقوم به.. فقد شاءت الصدف أن يكون مزمار الأنف، ونقر الدف باللسان عملي ومعرفتي الشخصية.

عندما أقول لهم:

ـ أنا أزمر بأنفي وأدق الطبلة بلساني يا سيدي.

يبدؤون بالضحك والسخرية..

عندها أقول لهم:

ـ رجاء.. لو تسمعونني لمرة واحدة فقط.. وبعدها أطلقوا أحكامكم.

يقولون:

ـ هيا اعزف لنرى.

أبدأ بمعزوفة.. أستهلها بنغم موسيقي، كما أستهل التقسيم الأول بمعزوفة أخرى رائعة، يتخللها بعض ضربات الطبلة على اللسان.. فيغمى عليهم من الإعجاب. لن تصدقونني إن قلت: هنالك أناس على مستوى عال من الرقي، أصحاب الوجوه العابسة المتجهمة، عندما أدق لهم الطبلة بلساني، وأزمر من أنفي.. يتنازلون من عليائهم، ويخلعون ستراتهم ويبدؤون بالرقص. حتى الرقص بالنسبة لهم ضريبة.. إذا كان الإنسان يقبض أكثر من خمسة آلاف ليرة في الشهر، يجب أن لا يرقص أبداً لأنه يصبح سخرية أمام الآخرين. وعلى الراقص أن يمتلك كرشاً إلى حد ما. وأنا أقول ذلك.. لأن بعض الفقراء يلفون كروشهم بحرامات صوفية حتى تكبر، ثم يرقصون.. ولكن هذه الطريقة مضادة للقواعد الصحية. مثل هؤلاء قد تتفتق صرتهم بعد فترة قصيرة من الرقص.

هل تعلمون ماذا يحصل عندما أعزف على مزماري؟

يقولون: واه.. واه.. لو كان هذا الرجل في أمريكا وأوروبة لصار مليونيراً.

لو فكرتم معي لوجدتم أن هذا الكلام يقال لكل الجياع، فمكاننا ليس هنا.. بل في أوروبة وأمريكا. يبدو أن الله قد خلق الإنسان من نوعين:

نوع آسيوي ـ أفريقي، ونوع أوروبي ـ أمريكي. ولأننا من النوع الثاني.. حتى لو قرعنا الطبول بألسنتنا والمزامير بأنوفنا، ولو اصطدنا الطير بأنوفنا والسمك بأفواهنا.. فلا عمل لنا على الإطلاق.

بعد هذه الالتفاتات، وبما أنني محسوب على الأمريكيين والأوروبيين، فإنهم يدسون بعض القروش في يدي.

لقد عانيت الكثير من متاعب الفن، لو لم أقف حجر عثرة بطريق معلمي الطيب القلب، والموسيقي البارع، لبقيتُ طوال عمري عازفاً هاوياً.. على مزمار أنفي.. «البركة في هذا المعلم الطيب».

أما معرفتي به فكانت كالتالي: كنت أعمل في أوركسترا مسرح (تولات). ماذا حدث؟ لماذا دهشتم؟ أقول لكم كنت في الأوركسترا.. لأن الإنسان الذي يعزف الطبلة بلسانه والمزمار بأنفه، فهو يشكل بحد ذاته أوركسترا. لم يكن عملي بهذا القدر فقط.. كنت أصعد إلى المسرح وأغني، وألبس لباس الراقصات وأرقص.. حتى قطع التذاكر.. كان من اختصاصي، وعمل الديكورات أيضاً، ونقل الخيمة والأمتعة من مكان إلى مكان.. وبعض الأحيان كنت آخذ أدوار الفنانات والفنانين الذين يمرضون في أوقات حفلاتهم.

ذات يوم.. كنا نمثل قصة (هاملت) لشكسبير.. ودوري هو (بشرول) يعني هاملت. وبما أنهم لم يخبروني.. لم أفطن لذلك مطلقاً.. وقد كنا نمثل قصة (لبلبجي هورهور) قبل ذلك بيوم واحد.. ظننت أننا سنمثل هذه القصة. فلما جاء دوري.. خرجت إلى المسرح أدق الطبلة بلساني والمزمار بأنفي، أنفذ المطلوب مني في دور (لبلبجي هورهور). نظرت إلى الديكور وإلى الممثلين.. وإذا بنا في قصر دانمركي.. وأنا (هاملت) الأمير الدانمركي. في البدء احترت في أمري.. وفيما سأفعله.. هل أزمر بأنفي وأبقى في دور (لبلبجي هورهور).. أم أنتقل إلى دور (هاملت)..؟ ورأيت الصواب أن

أقوم بدور (هاملت) لأن المسرحية قد بدأت قبل أن أدخل إلى المسرح.

كانت زوجة عازف الكمان كريستوس البدينة إيلين قد ألبست ثياب الصباح لابنتها مارلو.. كان صدر إيلين منتفخاً.. وبدا كطنجرتين نحاسيتين تحت الكتف الوردي.. بدأت على الفور بدوري في هاملت:

ـ سأنتقم من تلك المرأة الملكة التي هي بمثابة أمي.. سأنتقم منها لمقتل أبي.. أنا الأمير هاملت..!.. ولن يبقى موت أبي مجهولاً ضمن ملفات (الفاعل مجهول).. سأقدم معروضاً للطب العدلي.. وسأعمل على إخراج جسد أبي من القبر.. وسأحل لغز مقتله، وسأضع عمي قاتل أبي في قبضة البوليس.. وصرخت:

ـ أوفاليا.. أوفاليا ا ا ا ا ا.. أوفاليا ا ا ا ا ا..

ورميت بنفسي إلى أحضان ألين البدينة. وبدا أن المتفرجين لم يعجبهم دور هاملت.. فصاروا يصرخون:

ـ نريد مزماراً.. نريد مزماراً..

غضب معلمنا كثيراً من ردة فعل الجمهور.. فأمر بإنزال الستارة. وقال لي:

ـ ولك.. أنت على المسرح.. هل حسبت نفسك في مظاهرة وتقول ما بدا لك؟

طردني من العمل فوراً.. ولم أحفل بذلك؛ حتى وأنا أعمل هنا ما كنت أقبض قرشاً واحداً.. أما إذا عمل الإنسان في مكان آخر، يستطيع الحصول على المال من هنا ومن هناك. وكذلك بعد حرماني من العمل معه لن أتمكن من خداع أحد.

بعد طردي من العمل.. ارتديت ثيابي العسكرية الشتوية.. وجوربي الطويل المخصص للاعبي كرة القدم، ولم أنس ماكنة الحلاقة وشفرتها

التاريخية. ولدى خروجي من الخيمة كان بعض الحمقى متجمعين أمامها. عندما رأوني أشاروا لبعضهم وقالوا:

ـ هذا.. هذا هو.. الذي يزمر بأنفه.

اقترب مني رجل وقال:

ـ يا سيدي، أريد مقابلتك لبعض الوقت.

قلت:

ـ لا وقت لدي للتّحدث مع أحد إلا بموعد مسبق..

قال:

ـ مهم جداً.

ـ إذن أعطني سيجارة ليعود عقلي إلى رأسي..

قدَّم لي سيجارة مفلترة ذات رائحة زكية.. ثم ركبنا سيارته الخاصة واقتادني إلى مصنع كبير، ودخلنا مكتباً مفروشاً على أحدث طراز.. كان فاخراً بكل معنى الكلمة.

قلت:

ـ هنا يستطيع الإنسان أن يمثل دور هاملت بشكل جيد.. فمكتبكم هذا يشبه القصر.

قال الرجل:

ـ لندخل في صلب الموضوع.. أنا صاحب هذا المصنع..

قلت:

ـ كان لزاماً عليك أن تعلمني بذلك قبل الآن.. حتى آخذ الاحتياطات.

ـ لا يهمك أنا إنسان ديمقراطي.. ولا تهمني المظاهر أو

البروتوكولات.. اسمعني جيداً.. أنا صناعي.. ولكنني لا أستغل جهد أي إنسان.

قلت:

ـ واه.. واه.. إذن تبقى جائعاً على الدوام.

قال غاضباً:

ـ وما المناسبة؟ أقول لك أنا ضد الاستغلال.. اسأل العمال.. اسأل أي عامل عني.

دخلنا المصنع، فقلت لأحد العمال:

ـ ولك أخي هل صحيح ما يقوله معلمك هذا..؟

قال:

ـ نعم صحيح.. نحن نقبض ضعف ما يقبضه العمال الآخرون في بقية المصانع.. حتى يومياتنا.. وكأننا نعمل لأنفسنا أو في مصانعنا.. نعطل في العام شهراً كاملاً.. في العطلة نأخذ رواتبنا.. وفوق ذلك، نأخذ بعض الحوافز في الأعياد.. وإكراميات في ليلة رأس السنة.

وكما يقولون: كاد يغمى عليَّ جراء ما سمعت.. وصرخت:

ـ واي.. العن أمو..

بعد عودتنا إلى المكتب قلت للمعلم:

ـ هل أنت مجنون أم أحمق؟

قال:

ـ أنا عاقل جداً.

ـ طيب.. كيف يكون هذا العمل..؟

ـ سأشرح لك واسمعني جيداً.. قديماً كان يعمل في مصنعي أكثر من

ثلاثمائة عامل.. وطبعاً كانت رواتبهم متدنية.. سألتهم ذات مرة: «إذا أعطيتكم زيادة بنسبة عشرة بالمائة.. ما مقدار العمل الذي ستقدمونه لي؟» قالوا: «ضعفي الإنتاج القديم».. فصرفت خمسين عاملاً من المصنع.. ووصل الإنتاج إلى أربع أضعاف.. وهكذا مع الوقت بقي في المعمل خمسة وعشرون عاملاً فقط.. يعطلون في العام شهراً كاملاً.. ويقبضون زيادة عن باقي العمال.. وأنا أربح عشرة أضعاف ما كنت عليه في الماضي.

ـ طيب.. وماذا تريد مني؟

توقف بعض الشيء.. ثم استطرد قائلاً:

ـ من رابع المستحيلات أن أخفض عدد العمال أكثر من ذلك.. ولهذا فكرت بحلول أخرى. كما ترى معملي نظيف جداً.. وليس كبقية المعامل.. في المكان النظيف يعمل الإنسان بنشاط وبحيوية أكبر.. فتحت نوافذ في كل الاتجاهات. لأن العمال يقدمون ضعف طاقتهم في الأماكن المضاءة.. وكما رأيت.. الجدران والسقف مدهونة.. وتلمع لمعاناً.. ثم إن للألوان تأثيراً كبيراً في الإنسان.. فاللون السماوي والأبيض يريح أعصاب الإنسان وينومه، ولهذا يدهنون غرف المشافي بالأبيض والسماوي. أما اللون الأسود فيجعل الإنسان مهموماً.. والوردي والأصفر يجعلانه يضحك على نفسه. انظر كم أنا خبير بالألوان. أما الأحمر والأخضر فهما يحركان الإنسان ويهيجانه ويسرعان دورته الدموية.. من أجل ذلك يدهنون غرف النوم بالأحمر.. وأنا كذلك دهنت مصنعي بالأحمر كي ينشط عمالي أكثر.. ويزداد إنتاجي ضعفين.

ـ وماذا تريد مني..؟

ـ انتظر.. سأقول لك.. أريد إنتاجاً أكثر دون أن أستغل جهد أحد من الناس.. ولذلك.. يجب أن أعرف مدى شغف عمالي بالموسيقى.. فعندما

يسمع الإنسان نوعاً منها.. يعمل أكثر.. دون أن يشعر بالتعب.. وهذا ما كنت أريده منك. حاولت التعاقد مع أوركسترا.. لكن أسعارها مرتفعة.

ـ ولماذا لا تضع أسطوانات، وتوزع الصوت بالميكرفون بكل الاتجاهات؟

ـ فكرت بذلك لكن مكبر الصوت يصدر صوتاً مادياً معدنياً.. والصوت المادي المعدني يوتر أعصاب الإنسان، فلا يعمل العامل كما أريده.. طبعاً يجب أن يكون هناك صوت في الهواء الطلق.

ـ طيب.. جيد..

ـ أولاً.. لا أريد موسيقى تركية (ألا توركا).. فهل تعرف معزوفات إفرنجية (ألا فرنجا)؟

ـ ومن أروع المعزوفات.

ـ اعزف مقطوعة لـ (مجر ابسودي).

عزفت القطعة بمزمار أنفي.. وطبلة لساني.. أعجبته كثيراً حتى كان أن يغمى عليه. قال:

ـ لا تكفي حركة الأنف واللسان.. يجب أن تشغل يدك وقدمك مع أنفك ولسانك.. عندها أعطيك ضعفي أجرتك.

قلت:

ـ صحيح.. أضرب يدي اليمنى على بطني كما على طبل.

ـ وهل ستبقي رجلك دون عمل..؟

ـ لا. أضرب الأرض بنعلي وأصدر أصوات جرس.

ـ جيد جداً.. وماذا هناك أيضاً؟

ـ غير ذلك.. غير ذلك.. غير ذلك.. هاه.. تذكرت.. يدي اليسرى بقيت دون عمل.. أضربها على حوضي وأجعل منها إيقاعاً.

ـ غير ذلك؟

ـ بقي عضوان آخران لم أستخدمهما. هذان لا أتمكن من استعمالهما لأنهما ضروريان جداً.

ـ هذا شيء مكمّل.. إذن ستعزف بمعادل ستة رجال من طاقم الأوركسترا.. فإذا ما تعاقدت مع أوركسترا بهذا القدر.. علي أن أدفع أكثر من ستمائة ليرة يومياً.. أما أنت فترضى بخمسين ليرة.. أليس كذلك..؟

ـ وأرقص حتى.. فأنا لا أتقاضى مثل هذا المبلغ لا في اليوم، ولا في الأسبوع حتى.

ـ إذاً تفاهمنا.. وكما ترى أنا أعطي عمالي ثلاثة أو أربعة أضعاف الآخرين.. وليس هذا فحسب.. سأعطيهم الأكثر لو زادوا في الإنتاج.. وأقدم لهم كل ما يطلبون. وأنت، قل لي.. ماذا تريد؟ هل تريد لوناً أخضر أم أحمر.. أم تريد لباساً، أم شراباً؟

نظرت في وجه معلمي طيب القلب وقلت:

ـ لا أريد شيئاً أبداً.. أبداً.. أشكرك جزيل الشكر. إذا كنت تريد عملاً كثيراً وحركة زائدة مني.. فأنا أريد منك شيئاً واحداً فقط.

ـ قل بسرعة.. ماذا تريد؟ سألبيه لك على الفور.

ـ اغرب عن وجهي.. ولا ترني وجهك.. هذا يكفيني.

فرح المعلم كثيراً وقال:

ـ أعطني يدك.. تفاهمنا.. هيا ابدأ عملك.

□ □ □

- ٩ -

الذكريات الجميلة

منذ ثلاث سنوات وصديقي (دوغان) لا يعمل شيئاً على الإطلاق، يعني (عاطل عوارة).. ولكن عيشته كانت رائعة. لو أنه يعيش لوحده عازباً، ما اهتممت لأمر حياته بهذا القدر.. ولكنه معيل لأربعة أرواح.. وفوق ذلك كله.. حياتهم لا تشوبها أية شائبة على الإطلاق.

قبل ثلاث سنوات اقترض مني مبلغ ألف ليرة.. أعاده بعد أربعة أيام.. مع علمي الأكيد أنه عاطل عن العمل.. ولم يرث شيئاً عن غريب أو قريب.

منذ أيام سألته:

ـ المعذرة يا دوغان، أريد أن أسألك سؤالاً، وأرى من المعيب طرحه عليك.. أنت صديق قديم.. ولا ضرورة للإحراج.. ماذا تفعل..؟ أو ماذا تعمل حتى توفرت لديك هذه النقود؟

ضحك دوغان وقال:

ـ لا أعمل أي شيء.. وكما تعرف، كنت موظفاً براتب قدره خمسمائة ليرة.. ذقت الأمرين في حياتي الوظيفية تلك.. الآن، بعد أن تركت الوظيفة.. أربح الشيء الكثير، والحمد لله، دون أن أعمل أي شيء. إضافة إلى أنني، أدخر قسماً مما أربحه.

صراحة، بدأت أظن بصديقي الذي أحبه كثيراً أنه يتعاطى المحظورات أياً كان نوعها. قلت:

ـ إياك يا دوغان.. أرجو ألا تكون...

ـ لا.. لا.. لا أتعاطى أي عمل غير قانوني. العمل الذي أقوم به قانوني ونظامي، لا إحراج فيه مطلقاً.

ـ طيب، وما هو العمل؟

ـ فكرت طويلاً وقلت إن مجالات عمل كثيرة وجديدة تُفتح يومياً في البلد.. والجميع يربحون المال من لا شيء.. فلماذا لا أربح أنا أيضاً..؟ أنا الآخر وجدتُ باباً للربح.

عندما رأى زيادة فضولي قال:

ـ لنذهب إلى البيت، وهناك ترى بأم عينك.

في بيت دوغان غرفة واسعة مليئة ببعض الأغراض الجميلة.. إطارات مزركشة، ومصابيح ملونة بأشكال وأحجام مختلفة، وكراس ومزهريات رائعة، وألبومات قيمة، ومحافظ جلدية ثمينة، وأباجورات، وأشياء أخرى كثيرة.. سألته:

ـ ما هذه الأمتعة يا دوغان؟ هل تصنع هذه الأشياء للبيت ثم تبيعها؟

قلت ذلك.. وبعد تفكير لاحظت أن هذه الأشياء لا يستطيع الأولاد أن يصنعوها ومن غير المعقول أبداً.

أحضر لي إعلاناً منشوراً في إحدى الجرائد، وقال:

ـ اقرأ هذا الإعلان:

(عميلنا في (أوك ميدان) ينتظر أوامركم منذ اليوم

ستفتتح اليوم شعبة جديدة لمصرفنا في (أوك ميدان) وستقوم الشعبة بتقديم هدايا قيمة وظريفة لكل من يودع مائة ليرة في هذا المصرف.

التوقيع: مدير المصرف)

بعد أن قرأت الإعلان.. سألته:

ـ ما هذا؟

نظر إلى ساعته وقال:

ـ هيا لنركب سيارة ونذهب إلى (أوك ميدان).. سترى بعينك وتفهم كيفية ربحي للأموال.

ذهبنا إلى شعبة المصرف.. التي تفتح أبوابها في ذلك اليوم.. كانت تغصُّ بالمدعوين.. أكاليل الزهور موزعة في كل جانب.. وبوفيه رائعة توزع الكاتو.. والعصير.. والشطائر.. والمشروبات.

قال دوغان:

ـ بحق الله عليك.. كُل.. ولا حرج.

أكلنا حتى الانتفاخ.. ودوغان يزداد في تكريمي.

ـ والله أزعل منك.. كل من هذه المربيات التي صنعت من الكستناء.. إنه فاخر.

ـ والله يا دوغان لقد زاد الطعام عن قدرة معدتي.

ـ اشرب عصير الفيشنا.. يُهضم.. وإذا أردت اشرب عصير التفاح.

ـ ولك أخي والله سأنفجر.

ـ آمان.. بالله عليك خذ من هذه الأقراص السكرية فهي تذوب في الفم.

ـ إنك تكرمني.. وكأن هذه الأموال من مال أبيك.

ـ لو كانت هذه المشروبات والأطعمة من مال أبي.. ما قدمتها لأحد.. هذا ليس بشيء بعد.. هل تعرف أنني أقمت حفلة خطوبة لستّ فتيات فقيرات ضمن هذه الاحتفالات..؟

ـ لا تكذب..

ـ والله خطبتهن.. ودعوت الكثيرين لحضور حفلة الخطوبة بمناسبة افتتاح شعبة أحد المصارف.. شربوا.. وأكلوا هنا.. وألبستهم خواتم الخطوبة. وبما أن الأزهار موجودة في كل مكان.. قمت بتصوير العرسان بين الزهور.. وهكذا أفرحت عدداً كبيراً من الفقيرات. حفلة مثل هذه كانت تحتاج ألفي ليرة.

فمنذ ثلاث سنوات لا أرتاد المطاعم أبداً.. لأننا على العموم نفتتح كل يوم شعبتين أو أكثر، فأتناول طعام الغداء مما يقدمونه في حفلات افتتاح هذه الشعب. وأحيانا أحضر الأولاد والعيال ليأكلوا حتى تنتفخ بطونهم مثل الخرفان.. كما أننا نتناول العشاء أيضاً.. كما أنني أدعو الأصدقاء وعائلاتهم.

ـ طيب ولك دوغان.. ألا يقولون لك شيئاً؟

ـ ولماذا يقولون؟ أنا زبون كل المصارف.

ـ علمني طريقة ربحك للأموال.

ـ لا تتعجل.. هل تتذوق شوكولا كرم؟

ـ شكراً.

بعد الطعام والشراب.. قادني دوغان إلى زاوية في الصالون وقال:

ـ انظر.

هناك أيضاً وضعت أمتعة وأشياء.. كما رأيتها في بيت دوغان.. أباجورات.. أقلام حبر.. مناديل.. كانوا يقدمونها كهدايا لكل من يودع مائة ليرة في شعبة المصرف. أخرج دوغان من محفظته سبعة عشر ألف ليرة.. وقال:

ـ غداً ستفتتح شعبة أخرى.. أبقي عشرة آلاف في المحفظة وأودع سبعة آلاف ليرة في المصرف.. فآخذ سبعين هدية.. لكل مائة ليرة هدية.

ـ انتهى عملنا.. هيا لنذهب من هنا.

عبأنا الهدايا بصعوبة بالغة في سيارة أجرة.. قلت له:

ـ للمرة الثانية، لم أفهم طريقة هذا الربح..!

بدأ بحساب ثمن الأغراض:

ـ ثمن هذه المزهرية عشر ليرات..

قلت:

ـ إننا نشتريها.. بصعوبة بالغة وبسعر عشرين ليرة.

ـ عند الشراء يصح قولك.. أما عند المبيع، فلا تباع إلا بنصف قيمتها.. أساساً أنا أبيعها ولا أسأل إن كانت غالية أم رخيصة.. هذان المنديلان بثلاثين ليرة، هذه المحفظ إذا قلت بليرتين ونصف فإنها تساوي سبع ليرات ونصف.

أحصى ثمن الهدايا وجمعها من وجهة نظره، وقال:

ـ ربحي هنا مائتان وثمانون ليرة.. وقبل الظهر ذهبت إلى افتتاح شعبة لأحد المصارف.. وربحت من هناك أيضاً مائتين وثلاثين ليرة. فمجموع ما ربحته هذا اليوم خمسمائة وعشر ليرات.. بعض الأيام يصل ربحي إلى ستمائة أو سبعمائة ليرة.

ـ ولك دوغان.. والله لم أفهم شيئاً بعد.. أنت تبيع هذه البضائع.. جميل جداً.. ولكن من أين تأتي بمبلغ ثمانية آلاف ليرة كي تضعها في الشعب المصرفية.. وكيف تحصل على هذه المبالغ؟

ـ لا ولك روحي.. لا أحتاج إلى تلك المبالغ من المال.. كل ما أملكه هو عشرون ألف ليرة.. أضعها في المصرف.. ثم أسحبها بعد ثلاثة أيام. والنقود التي أحصل عليها من بيع الأغراض تبقى ربحاً لي.. ومن هناك أذهب إلى مصرف آخر.. وأودع المال..

ـ إنه عمل سهل..

ـ لا.. لا.. ليس سهلاً على الإطلاق.. أحيانا يتم افتتاح ثلاث أو أربع شعب دفعة واحدة.. ولا أستطيع اللحاق بها كلها لحضور هذا الافتتاح.

ـ طيب ولك دوغان.. إذا فعل كل شخص مثلك.. فمصير هذه المصارف هو الإفلاس.

ـ لا يحدث أي شيء.. ثم إنني لا أسحب كل أموالي.. كي لا يكون عيباً.. مثلاً، المصرف الفلاني.. له أربعون شعبة في استانبول.. وحسابي في كل شعبة بضع ليرات.. وهكذا.. فالبنوك تستغل أموالي وتربح الشيء الكثير جداً. وعليها أن تعرف كيف توظف هذه الأموال.. هيا لنذهب إلى السوق المغلق لأتخلص من هذا الحمل.

وفيما كنت أنزل من السيارة.. كان المذياع يعلن دعاية لأحد المصارف: «كل من يودع مائة ليرة.. له هدية ظريفة جداً.. شعبة قره جة أحمد تفتتح غداً».

ترنك بنك.. ترنك بنك.. ترنك بنك.

□ □ □

ـ ١٠ ـ

الحلزونات التي احتلت السفينة

ـ سوس.. سوس.. نقطة هات.. هات.. هات.. هات نقطة.. نقطة.. نقطة.. هات.. سوس.. تات تااا.. تات.. تات تااا تات.. سوس.. هات.. هات.. نقطة.. هات.. نقطة.. سوس.

أصوات يبثها لاسلكي سفينة (أونكاباني).. وكان عامل اللاسلكي التابع لأقرب ميناء يسأل السفينة:

ـ ماذا هناك..؟

الجواب القادم كان قصيراً:

ـ بحر الجزر.. صفر.. صفر ثلاث درجات نحو الشمال.. صفر.. صفر.. درجة وثلاث ثواني.. إلى الغرب.. لقد احتلت الحلزونات أو (البزاقات) السفينة. الخطر كبير.. سوس.. سوس..

النبأ الصادر عن سفينة (اونكاباني) لم يزد عن ذلك.. وعبثاً حاول عمال اللاسلكي في الميناء، وفي السفن الأخرى الاتصال بالسفينة. وخلال دقائق قليلة تلقّت النبأ جميع السفن الموجودة ضمن الجزر. كانت أجهزة اللاسلكي تعمل دون توقف.

ـ احتلت الحلزونات سفينة (اونكاباني).

ـ هل تقول الحلزونات؟

ـ نعم الحلزونات.

ـ ما هذه الحلزونات؟

ـ وكيف لي أن أعرف نوعية الحلزونات تلك؟

هكذا أجاب عامل اللاسلكي في اتصاله الأخير، وتوقف عن الإرسال.. «استولت الحلزونات على السفينة تماماً».

ـ لم أسمع مطلقاً عن هذه الحلزونات التي تتحدث عنها.. ربما هي حشرات بقوقعتها.

ـ من يصدق أن هذه الحشرة أو الحلزونة تستطيع الاستيلاء على سفينة ولك أخي.. !؟

ـ طيب.. إذاً ما هذه الحلزونات..؟ ربما فهموا خطأ..

ـ لا أظن.. عمال اللاسلكي جميعهم رددوا النداء نفسه.. طالبين النجدة. وعاملنا الذي أمضى ثمانية عشرة عاماً في عمله.. يقولون إنه كرر النداء نفسه.. «إن البزاقات قد استولت على سفينة» (اونكاباني).

ـ إذن بالنسبة لك ما سمي بالحلزونات لا يعقل أن تكون تلك الحشرة المخيفة.

ـ ولك أمعقول يا أخي أن تستولي هذه المخلوقات الصغيرة على سفينة كبيرة؟!

ـ لا أعرف.. والآن.. كيف نستطيع أن نخبر عن شحنة الحلزون التي تخصنا؟

ـ نبيع ما اشتريناه.. الحلزونات.. الحلزونات..

* * *

ـ حلزونات في سفينة (اونكاباني).

ـ نعم..

ـ آمل ألاَّ يكونوا قراصنة.

- والله لا أعرف.

- قراصنة من الحلزون.

- انظر إلى هذه الخريطة.

- هنا جزيرة (سردينيا).. وجزيرة العلكة.. وجزيرة سيسام.

- أخشى أن يكونوا قد حسبوا قراصنة (سريدينيا) صايلنفوز (حلزونات).

- لا أعلم.. وربما هم قراصنة (سردينيا).

* * *

كانت باخرة (اونكاباني) قد حملت خمسة أطنان من الحلزون في ميناء استانبول.. ضمن صناديق وضعت على العنابر. مصدرة إلى فرنسا.. وقد أبحرت السفينة وفيها أنواع أخرى من البضائع.. كان القبطان نائماً في غرفته في الليلة التالية لتحرك الباخرة من استانبول، فأيقظه شيء رطب يزحف علي وجهه.. مدّ يده.. وإذا بشيء ناعم الملمس.. رطب.. وليس شيئاً واحداً.. بل أشياء كثيرة. أشعل المصباح.. فرأى الحلزونات قد لفت جسده والسرير وكل شيء من حوله.

خرج القبطان من غرفته صارخاً.. فحيثما وطئت قدمه.. كانت أشياء تُدهس وتُسحق تحت قدمه.. بعضها خرج من قوقعته وبعضها لم يخرج. آلاف الحلزونات أطبقت عليه.

وكان البحار المناوب، والعامل على مقود توجيه الباخرة.. أول من سمعات صوت القبطان فأسرعا إلى مصدر الصوت، والأصح أنهما حاولا الجري مسرعين، ولكنهما.. لم يستطيعا.. لأن موجّه العجلة دهس حلزونة في أول خطوة خطاها، فزلت قدمه وسقط بقوة على سطح السفينة.. وتحسس أشياء أخرى بحجم حبة الجوز.. تتحرك تحت يديه.

في هذه الأثناء كان العامل الميكانيكي الثاني قد صعد إلى سطح الباخرة.. فاحتار فيما رآه.. كل مكان في الباخرة يعج بتلك المخلوقات.. السلالم.. الجدران.. الأرض.. والمحركات والصواري والمكابس والساعات. فسيطر خوف شديد على جميع البحارة.. وأضحى الخطر كبيراً بكل معنى الكلمة.. لأنه ما من أحد يستطيع أن يمد يده نحو هذه المخلوقات الناعمة.. حتى أن القبطان اعتراه نوع من الخوف.. فأسرع إلى صنبور المرحاض يريد استخدامه.. ولكن الحلزونات كانت قد سبقته وتوضعت على الصنابير والنوافذ. صوت آخر.. صدر عن الميكانيكي.. لأن الحلزونات استولت كلياً على قسم القازانات.

لم يكن خوف البحارة في هذه الواقعة أقل من خوفهم عند غرق السفينة..

صار البحارة يكنسون الحلزونات بمكانس (خشنة) ويرمونها في البحر.. وما هي إلا ثوان.. حتى يمتلئ المكان من جديد.. وكأنها تتكاثر، أو تنبع من كل مكان.

بدأت الحلزونات تسير باتجاه البحارة.. الحل الأخير هو طلب النجدة. كان عامل اللاسلكي يشعر باشمئزاز كبير من هذه المخلوقات.. ولذلك كان أسرع الجميع لتلبية الطلب عندما أعطى القبطان أمراً:

- أسرع.. اطلب مساعدة.

اقترب عامل اللاسلكي من الآلة التي لفتها الحلزونات من كل جانب.. وبما أنه كان يشمئز من منظرها وحركاتها وملمسها.. دفع الحلزونات بقدميه وأبعدها بيديه.. وشغل الآلة:

- سوس.. سوس.. استولت الحلزونات على الباخرة.

في هذه الأثناء بدأت الحلزونات تتجه نحو وجهه بادئة من قدميه.. فخرج من المكان وهو يصرخ كمن فقد عقله.

* * *

وصلت الباخرة (اونكاباني) إلى مرسيليا ورمت مرساتها.. وبعد جدال استمر طوال الطريق.. لم يستطيعوا تنظيف الباخرة.. ولكنهم أنقذوها من الغرق.

انعدمت الوسائل لتنظيف (اونكاباني) إلا عن طريق الأدوية ورش المبيدات أو الغازات السامة.. ولدى وصولهم نزل القبطان إلى البر ومعه طاقم من الفنيين.. وقصدوا أحد الفنادق.. وخلعوا ثيابهم.. كانت الحلزونات تخرج حتى من جيوبهم.. وأول عمل قاموا به.. دخلوا الحمام (البانيو) واغتسلوا جيداً.. ولكن آثار الحلزون الفضية ظلت تزين ثيابهم. ثم قصدوا مطعم الفندق.. بعد جوع دام يومين. قال القبطان للنادل:

- آمان.. بالله عليك.. أسرع لنا بالطعام.

- ماذا تريدون؟

- أحضر ما يتيسر عندكم.. نحن قادمون من السفر.. أعطنا ألذّ وأطيب الأصناف الموجودة.

أكلوا حتى الشبع.

قال الحداد:

- كان الحساء رائعاً.

وقال الميكانيكي:

- حتى المقالي كانت رائعة.

وقال القبطان:

- وهذه المسلوقات ماذا تقولون عنها؟

أكلوا وأكلوا حتى الشبع الكامل.

قال أحد البحارة:

ـ هذا لحم عجل.

ـ لا أظن.

ـ أقول لك لحم عجل ولك أخي.. يضعونها في البراد.. ثم يغمسونها في الشراب حتى تلين وتصبح هكذا.

ـ هذا لحم خروف.

ـ بالنسبة لي.. هذا سمك.

ـ أيها النادل.. من فضلك..

ـ أفندم..

ـ هذه القاورمة من أي لحم؟

ـ هل أعجبكم سيدي؟ في هذا الأسبوع وصلتنا باخرة حلزون من تركيا.

ـ ماذا!!!؟!!

ـ هذه مسلوقة..

قال الخادم مبتسماً ظناً منه أنه أرضى زبائنه:

ـ نعم، هذه أيضاً حلزون..

ـ ماذا..؟ الحساء..

ـ معلمنا يعطي أهمية زائدة للطعام.. ولا يهمه المال.. نعم، والحساء أيضاً حلزون..

ـ والسلطة..؟

ـ نعم سيدي.. سلطة حلزون!!

□ □ □

ـ ١١ ـ

متى ولد شرمندي؟

ـ إنه عالم كبير.

ـ هل اكتشف شيئاً حتى الآن؟

ـ وهل هذا سؤال؟ إنك ملحاح كبير مثل عامة الشعب.. فالمثقفون لا يهتمون لذلك كثيراً.

ـ هات ما عندك ولك روحي.. ماذا فعل هذا العالم الكبير؟

ـ لقد نقض كل ما كتب حتى الآن عن تاريخ أدبنا.

ـ وما هو التاريخ الذي كتب عنه خطأ؟

ـ هنالك شاعر اسمه (شرمندي) عاش في القرن الرابع عشر.

ـ أعرفه..

ـ له ديوان كبير.. وورد اسمه في المؤلفات المخطوطة.

ـ نعم..

ـ جميع المؤرخين ذكروا في كتاباتهم أن هذه الشاعر ولد في الرابع من أيار. وأثبت، وبالدليل القاطع أن الأستاذ (شرمندي) لم يولد في ٤ أيار.

ـ وكيف أثبت ذلك؟

ـ أثبت ذلك في كتابه المؤلف من ستمائة صفحة.

ـ وهل جاء ذلك في الكتاب؟

ـ لا.. كيف يستطيع المؤرخ أو الأديب.. أن يثبت مثل هذه المعلومة الهامة في كتاب من جزء واحد..؟ الجزء الأول هو مدخل للموضوع فقط.

ـ يعني..؟

ـ يعني.. يقول في الجزء الأول.. إن (شرمندي) لم يولد في ٤ أيار.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أعلم.. ربما يكون في الجزء الثاني أو الثالث.. وربما في الجزء الرابع.. وخلال هذه البحوث كلها.. سيعمد إلى إثبات أن تاريخ ميلاده ليس في الرابع من أيار (مايس) وربما في الجزء الخامس والسادس سيحدد تاريخ ويوم ولادة (شرمندي).

ـ في كم جزء سيكون موضوع البحث؟

ـ هذا غير معروف حتى الآن.. أنجز الجزء الأول فقط.. وعمل في كتابته خمسة عشر عاماً.

ـ ماذا تقولون..؟! خمسة عشر عاماً؟!

ـ بالتأكيد.. من الواضح أنك تجهل ماهية العلم.

ـ والأجزاء الأخرى متى ستكتب؟

ـ إنشاء الله.. إذا أمد الله بعمره سينتهي من الجزء الثاني بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً.. لأن الأستاذ حالياً في الرابعة والستين من عمره.

ـ أطال الله عمره.

ـ بعد رحيله يقوم العلماء الآخرون بالسير على خطاه من النقطة التي وصلها.

ـ أتسمح لي بسؤال؟ فقد زاد فضولي. هذا الشاعر الذي أسميته (شرمندي).. إذا لم يكن قد ولد في ٤ أيار.. فمتى يكون قد ولد إذن؟

ـ هذه هي النقطة التي تغير تاريخ الأدب.. يقولون إنه لم يولد في ٤ أيار بل في ليلة ٣ ـ ٤ أيار.. هكذا يفترض. فكل مؤرخي الأدب وقعوا في هذا الخطأ الكبير وكتبوا في ٤ أيار.

ـ هذا هو كل شيء يعني؟

ـ وهل هذا بالأمر السهل؟ إن إثبات تاريخ ميلاد شاعر معروف ومشهور ليس أمراً يسيراً.

ـ ألم يكن بمقدوره أن يسجل ذلك خلال ساعات معدودات؟ وهل أجهد نفسه بكتابة ستمائة صفحة من أجل هذا فقط؟!

ـ يا ذكي، إذا قام بتسجيلها أو كتابتها خلال ساعات قلائل كما تقول.. يكون مثلنا.. ولا يكون أي فرق بيننا وبينه، فعندما تقول عالماً.. يعني أنه يكتب الأشياء بشكل لا يفهمه الآخرون.. وما نكتبه نحن بخمس كلمات يحتاج عنده إلى خمسمائة كلمة.. هذا هو العالم الحقيقي. وهذا هو الفرق بين العالم.. وغير العالم.

ـ إن كان الأمر هكذا.. فكيف عرفت أن الشاعر (شرمندي) ولد في ٣ أيار، وليس في ٤ أيار؟ هل قرأت الكتاب وتوصلت إلى هذا؟

ـ هذا سؤال سخيف يا أخي.. لا يستطيع أحد أن يفهم ما يريد العالم من خلال قراءة كتابه.. فهو عالم علاّمة متبحر في استطلاعاته وعلومه.

ـ أنا شخصياً أريد أن أفهم هذا.. أما أنت فكيف فهمت الأمر؟

ـ بدون أي شك.. ليس من الكتاب.. هو نفسه ذكرها لي شخصياً. بالأصل هذه الكتب ليست للقراءة وإنما هي وثائق يمكن الرجوع إليها عند الحاجة.

ـ طيب.. ولماذا ينشرون هذه الكتب إذن؟

ـ من الواضح أنك لا تملك أية فكرة عن العلم.. أي كتاب أو أثر يُقرأ

ويُفهم ويُباع.. تهبط قيمته الفنية والأدبية كثيراً. ولذا فالعلماء يفضلون بقاء كتبهم وآثارهم مصفوفة على الرفوف.. يعلوها الغبار على أن تباع وتقرأ وتفهم. والكتاب الذي يُقرأ قليلاً، أو الذي لا يقرأ أبداً، والذي يفهم مضمونه بصعوبة بالغة.. حتى وإن لم يفهم أبداً.. كل هذا يرفع من شأن الكاتب كثيراً.

ـ الحقيقة.. لقد حيَّرتني تماماً.

ـ وما هو المحير في الأمر؟.. مثلاً.. هل من السهولة أن يكتب أحدهم كلمات لا تفهم..؟ انظر.. منذ ساعات ونحن نتحاور ونتناقش.. نفهم بعضنا.. هيا أرني شطارتك.. تحدث مدة خمس دقائق بكلام لا يفهمه أحد. هل يكون هذا سهلاً أم صعباً؟

ـ صعب.

ـ ليس صعباً.. بل مستحيل.. فكر جيداً: هذا ليس حديثاً فارغاً لخمس دقائق فقط.. بل كتابة خمسمائة صفحة بدلائل وإثباتات تناقض بعضها أحياناً وأحيانا توافق.. وتدوم ساعات وأيام طويلة. يستطيع الإنسان أن يتحدث لمدة خمس دقائق حديثاً عادياً.. ولكنه لا يستطيع أن يكون عالماً بأي شكل من الأشكال. والفرق بين المجانين والعلماء.. هو أنه عندما يعمد العالم إلى تأليف كتاب من خمسمائة صفحة.. يفهمها جميع الناس، خالية من الأخطاء اللغوية والمطبعية والإملائية مستوفية النقط والفواصل.. ليس فيها جملة واحدة متناقضة أو بعيدة عن المنطق. أما المجانين، فمن رابع المستحيلات أن تتسم أفكارهم بالمعارف العلمية أو اللغوية.

ـ أريد أن أفهم شيئاً آخر. كيف يثبت هذا العالم أن الشاعر الكبير (شرمندي) لم يولد في ٤ أيار.. بل في الليلة التي ربطت بين ٣ أيار و٤ منه؟

ـ لم يثبت شيئاً مطلقاً.. فمثلاً.. يقولون إن الشاعر (شرمندي) في أحد دواوينه كتب هذه الكلمات: «جئت إلى الحياة عندما كان الأمس يُسلم إلى الغد». أليس هذا واضحاً جداً..؟ الأمس والغد، متى يسلمان لبعضهما؟ أليس في الساعة الـ ٢٤؟ وبما أنه قال: «عندما كانا يجريان التسليم والاستلام» يعني ذلك أن التسليم بينهما لم يبدأ بعد.. بل إنهما يحضران أنفسهما للتسليم.. وإن الساعة لم تصل بعد إلى الرابعة والعشرين.. ربما في خمس دقائق أو دقيقتين. وهذا يعني أن (شرمندي) لم يولد في ٤ أيار بل ٣ أيار.

ـ جميل جداً يا عزيزي.. لكن ما فائدة كل هذه التخمينات؟

ـ أتظن أنها لا تفيد..؟ ربما يأتي عالم ويقول إن (الشرمندي) ولد في ٣ أيار، الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين.. ولكي يثبت ذلك سيؤلف كتاباً من خمسة أجزاء.. ويظهر آخر سواه.. ويقول إن الشاعر ولد في ٣ أيار، الساعة (١١,٣٥).. ويؤلف كتاباً من خمسة أجزاء لإثبات ذلك. وهكذا يتضح مكان وساعة ولادة الشاعر (شرمندي) على أكمل وجه.

ـ عفواً.. مرة أخرى لم أفهم.. إن ولد الشاعر في ٣ أيار، أو ٤ أيار.. في الساعة (١١,٣٠) أو (١١,٣٥).. ماذا ينتج عن ذلك؟

ـ وهل تظن يا عزيزي أنه لولا وجود هذه الأمور ينتهي كل شيء اسمه التاريخ الأدبي.. فظهور عالم يقول ولد في ٣ أيار، وآخر يقول ٤ أيار.. ويبدأ الحوار بينهما.. وكل منهما يكتب ما لا يفهم.. وأفكاراً يصعب إدراكها.. ليثبت أنه أعلم من الآخر.

ـ والله لم أفهم.. وما فائدة ذلك؟

ـ ولك أخي، جراء هذه الحوارات والمناقشات.. يظهر علماء ويصبحون (بروفيسورات).. ويشتهرون.. فيعيشون حياة رائعة.. ويُحترمون من الآخرين.. وتبقى أسماؤهم خالدة.. ولولا العلماء لما

عرفنا في أي يوم وساعة ولد الشاعر (شرمندي)، وبقينا نتخبط في ظلمة من الجهل.. لا علم فيها ولا حياة..

والإنسانية تتقدم هكذا؛ فعالم يطرح موضوعاً من الخيال، وآخر يقول: «لا.. ليس هكذا.. بل هكذا» وتبدأ مناقشة.. ويظهر آخر ويقول: «لا هذا ولا ذاك..» وهكذا تتقدم دنيانا خطوة خطوة إلى الأمام.

- صحيح.. الإنسان يفكر.. ويقر أنه لولا العلماء.. لبقي كثير من هذه الحقائق مجهولاً.. آمان يا ربي.. كيف كنا سنعيش في دنيا لا تظهر فيها الحقائق..؟! لولا وجودهم ما عرفنا شيئاً.. كنا سنحسبه ولد في ٤ أيار.. ولكانت الحياة مستحيلة في دنيا كهذه.. ماذا كنا سنفعل لولا وجود العلماء..؟! لا أدري..!

□ □ □

- ١٢ -

الجائزة الكبرى

هكذا كان المعلق يقول في المذياع:

«مبلغ كهذا.. لا تسعه جيوبكم.. ولا تسعه حقائبكم الكبيرة ولا الصغيرة.. ولا يمكن نقله بالسيارة.. والأفضل لكم أن تحوّلوه أوراق من فئة الألف ليرة. في سحب ليلة رأس السنة تستطيعون أن تربحوا مليون ليرة».

افرض أنني ربحت الجائزة.. نعم ربحت.. لا خمسين ليرة ولا مائة ليرة.. ولا مكافأة للترضية.. بل مليون ليرة غير منقوصة. صدقوا أو لا تصدقوا، ستقرؤون في الصحف عن ولادة مليونير جديد. قبل كل شيء سأقول لكم شيئاً، وهذه هي كلمتي الأخيرة: أول عمل سأقوم به بعد الآن هو الابتعاد عن الكتابة كلياً، فأنا إنسان يملك مليون ليرة.. ولن أكتب بعد الآن أية مقالة أو قصة بعشر ليرات أو عشرين.. فهل يعقل هذا الكلام؟ لو أعطوني ألف ليرة لن أكتب.. مرت تلك الأيام يا سيدي.. مرت.. لم أكتب ولن أكتب. هل من مهزلة أكبر منها عندما يقال إن مليونيراً يكتب قصصاً ومقالات من أجل لقمة العيش؟! هذا المبلغ الذي ربحته من اليانصيب.. مليون ليرة.. لو كتب لي أن أربحها من الكتابة.. كان لزاماً عليّ، ودون أن أصرف مما أقبضه قرشاً واحداً، أن أكتب ٦٦ ألف ٦٧٦ مقالة أو قصة. والإنسان في أحسن الأحوال لا يكتب في اليوم الواحد أكثر من قصة أو مقالة. لنقل اثنتين.. وهذا يعني أنني سأظل أكتب

١٥٠عاماً حتى أدّخر مقدار هذا المبلغ الذي ربحته من الجائزة الكبرى. بالله عليكم.. قولوا أنتم.. هل يكتب إنسان مثلي بعد الآن؟

كانت الصعوبة الأولى، كما قال المعلق، في نقل هذا المبلغ.. إنه مليون ليرة.. أين يضعه الإنسان.. فلا حقيبة تتسع له.. ولا يمكن نقله؟ والله ليس سهلاً وضع ستة أصفار أمام الواحد.

إذا كنتم مثلي لم تروا طوال عمركم بضعة آلاف دفعة واحدة.. فكيف يكون حالكم عندما ترون المليون ليرة تحت تصرفكم دفعة واحدة..؟ لا تحاولوا عبثاً.. فأنتم عاجزون عن التفكير بمليون ليرة.. الذي لا يتسع له جيب، حتى ولا حقيبة كبيرة. حمولة سيارة من النقود. «ما شاء الله» قالها المعلق.. وبقيت كلماته تتردد على مسامعي.

ـ أريد ألف قطعة من ذات الألف.

وهل من السهولة بمكان أن تجمع ألف ورقة في مكان واحد.. بصعوبة بالغة استطاعوا أن يجمعوا ألف ورقة من ذات الألف.. لا تقولوا ألف ورقة من ذات ألف ليرة.. تصوروا كتاباً يضم ألف صفحة.

لدى خروجي من البنك اعتراني خوف شديد.. كنت أخشى أن يتصدى لي أحدهم فيهجم علي ويأخذ المال ويهرب. الدنيا مليئة بحالات كهذه.. نسمع أشياء وأشياء.. يداي الاثنتان تشدان على صدري بقوة.

انظر إلى المعارك من حولي.. عيون الجميع تلمع بشكل غريب.. يتطلعون إليَّ شذراً، ويرمقونني بنظرات خاطفة، حاقدة وحاسدة.. أترقب هجومهم في كل لحظة.

كنت سأصرخ:

ـ النجدة..

ولكن ممن تطلب النجدة والذين يأتون للمساعدة ربما يسرقونك؟

كيف ستعرف أنهم لن يفعلوا ذلك؟ إنهم بشر.. وكلهم رضعوا الحليب النيئ.. أعرفهم جميعاً.. ولديهم استعداد للقيام بكل قدر غير مستحب. هل تقولون: ومن أين تعرف؟ لأنني أنا أيضاً إنسان. يا إلهي.. ماذا أفعل؟ أخاف أن يأخذوا مالي وسط هذه الزحمة، أو أن يهاجموني في زاوية منعزلة.. آه من هؤلاء الناس.. كلهم.. كلهم.. قليلو الشرف والناموس.

وصلت منتصف الطريق.. وتمنيت لو أنني حططت رحالي في البيت. في هذه الأثناء وجدتني وجهاً لوجه مع (رضا وهاباهاب)، تباً، لعنه الله، تظاهرت وكأنني لم أره.. وإذا به يصيح من خلفي:

ـ حسـ سـ ـن.. حسـ سـ ـن..

كان يصرخ.. بينما كنت قد انتقلت إلى الرصيف المقابل.. ولكن انتقالي لم ينقذني.. قليل الشرف، لحق بي وتأبط ذراعي:

ـ ولك أخي هل أصبحت أصماً..؟ منذ ساعة وأنا أناديك من خلفك ولا تسمعني.

ـ أذناي سدَّتا من جراء النزلة.

ـ شو.. لماذا تضحك على الدوام..؟ هل هناك ما يضحك؟

انظر إلى هذا الحقير.. ربما يكون قد اشتم رائحة المليون. هكذا هم البشر.. يشمون رائحة المال كما يشتم كلب الصياد رائحة الأرنب. عندما وضعت المليون في جيبي.. بدأت الابتسامات ترتسم على وجهي دون أن أدري.. لا الابتسامة لا تجدي أبداً.. فكشرت وقطبت جبيني وعقدت حاجبي.

ـ لا.. لا.. لا تسألني.. هذا اليوم حزنت كثيراً ولا أعرف كيف أتصرف.

ـ ماذا حصل؟ حمداً لله على السلامة.. انظر، لقد تبدل لون وجهك

على الفور.. ولونه ذبل أيضاً..

قلت:

ـ لا تسألني.. اليوم أضعت خمسين ليرة.

قال رضا:

ـ واه.. واه.. واه.. والله يستحق الزعل.. ماذا نفعل..؟ الله يديم الصحة والعافية.

حقاً كان حزن رضا كبيراً.. لأن الخمسين ليرة بالنسبة لنا مبلغ كبير ومهم، ولا تجنيه بسهولة.

حاول تهدئتي.. وطيب خاطري قائلاً:

ـ لا تحزن.. الله يديم الصحة.

المهم، تخلصت منه بصعوبة بالغة. لم أمش مائة خطوة.. وإذا بشادي أمامي.. وجهاً لوجه.. (العمي) غير معقول كل هذه المعاكسات تتتالى متسارعة.. عندما أفلس تماماً.. أبحث عن الأصدقاء.. فلا أجد منهم أحداً. انظر، قليل الشرف كان يقطع الطريق علي.. قال:

ـ شو يا حسن..؟ تصرفاتك غريبة.

أحسست أن براغيث الأرض كلها بدأت تدب على جسدي.. هل شاهد الآلاف في جيبي يا ترى..؟ صرخت:

ـ لا.. لا.. والله وبالله لا يوجد أي شيء.. ضغطت بيدي على الأموال التي تنام فوق قلبي.

ـ آمل ألا تكون تشكو من قلبك. وجهك متجهم، ولونك ذابل.

قلت متلعثماً:

ـ نعم.. نعم.

ـ وجهك أصفر.. هل أغضبك شيء ما؟

ـ هل يعقل ولك شادي..؟! المعيشة صعبة.. لذلك نغضب على الدوام.

ـ لا يهمك.. كلنا نعاني مثلك.

ـ ماذا نفعل؟

غيرت طريقي مباشرة وقلت:

ـ أستأذنك.. سأعرج على أحد معارفي.

وما كدت أقطع المنعطف وإذ بي وجهاً لوجه أمام (عساف). هو الآخر سألني عن اكفهرار وجهي واصفرار لونه.. قلت له بعض الكلمات.. أما هو فقد قال:

ـ هذه الليلة سأزورك مع العائلة..

عندها تذكرت أنني دعوت عساف لزيارة منزلي.. وليتني لم أفعلها. قلت:

ـ هذا المساء لسنا موجودين في المنزل.

ـ إيه.. إذن نذهب غداً.

ـ غداً أيضاً عندنا موعد.

ـ إذن.. نزوركم بعد غد.

ـ هل تقول بعد غد..؟ انتظر.. ها.. ها.. بعد غد أيضاً مدعوون.

ـ إذن نزوركم يوم الأربعاء..

ـ حتى الأربعاء.. سننتقل من البيت.

ـ إلى أين؟

ـ حتى الآن لا أعلم.. أنا أخبرك متى تزورني.. أستودعك الله.

جريت دون أن أنظر خلفي.. ودون أن ألتفت يمنة أو يسرة كي لا ألتقي واحداً أعرفه.. وصرت أحث الخطا.

عندما خرجت من البيت أعلمت زوجتي بأنني ذاهب لأقبض الجائزة الكبرى.. ولما تذكرت ذلك أوشكت أن أجن.. واعتبرت تصرفي هذا خطأ، لأنه لا أحد يعطي مثل هذا السر لزوجته.. ومن هي الزوجة؟ معناها.. امرأة.. وهل من أحد يثق بامرأة في هذه الأيام.. عندما ترى المليون.. تدس لي السم فتقتلني.. وتستولي على المال.. ثم تتزوج من شاب.. مع أننا نضع رأسينا على وسادة واحدة منذ ثمانية عشر عاماً.. يجب أن لا أثق بها.. إننا نعيش في زمن رهيب.. حتى العين اليمنى لا تثق بالعين اليسرى.

عندما وصلت البيت استقبلني الأولاد بفرح بالغ، وكانوا على وشك أن يتدحرجوا على السلم. نهرتهم بعصبية وقلت لهم:

ـ ماذا جرى لكم؟ هل جننتم؟

جمد ولداي لقوة صوتي وجدية لهجتي.. وسألتني زوجتي:

ـ ألم تقبض قيمة الجائزة؟

ـ هل تقولين المال؟ وأي مال هذا؟

ـ ولك روحي.. ألم تربح الجائزة الكبرى.. مليون ليرة؟

ـ ومن أين آتي بالحظ..؟ قرأت الرقم خطأً.. فأضعنا كل شيء بسبب رقم واحد.. نحن رأينا الثمانية.. تسعة.

حزنوا كثيراً وكأن المليون ليرة كانت في أيديهم.. وأضاعوها.. وبدت على وجهي علائم الحزن التي تتقطع لمنظرها القلوب.

قالت زوجتي:

ـ لا تحزن يا روحي.. أدام الله الصحة.. سأطبخ لك قهوة لتشربها.

أنا أعرف زوجتي إنها مصممة على قتلي.. تريد أن تسمني.. نظراتها كنظرات الأفعى.

تضحك، ولكنني أفهم السم الذي في أعماقها.. طبعاً لم أستطع أن أشرب القهوة.. ألقيت بها في الأصيص دون أن تراني.

البنت أيضاً صورة عن أمها.. كانت تبتسم وتقول:

ـ بابا.. بابا..

وكنت أقرأ ما في داخلها.

والولد.. أعرَف بما يجول في أفكاري، كان ينظر إلي وكأنه يقول: «ولك خنزير.. لا تنطلي علينا حيلك.. ليتك تموت فنستولي على المال».

قالوا:

ـ جاء السيد صالح.

أنا مدين لصالح هذا بمائتي ليرة.. إنسان نبيل وقف إلى جانبي وأعطاني مائتي ليرة في وقت كنت فيه بأمس الحاجة إليها.. يجب مساعدة الآخرين.. هل سمع يا ترى بربحي للجائزة الكبرى؟ وإن كان قد سمع، حتماً سيقول: «حسنة بحسنة، والمعروف يقابل بمثله».

والحقيقة قررت في نفسي أن أعطي ألفي ليرة لصالح هذا.. فهي بالنسبة لي لا تساوي شيئاً، ولا تحرك شعرة واحدة من جسدي.. لأن ما تبقى معي كثير: ٩٩٨ قطعة من ذات الألف. ولكنني لن أعطيه كي لا يسمع الآخرون.. ويطلبون مني المساعدة. لو أعطيت كل من ساعدني ألفي ليرة.. لا تكفيني عشرون مليوناً.. والله لا أدري ماذا أفعل..! توقف؛ الآن عرفت ما الذي سأفعله..

قال صالح يسألني:

ـ ماذا جرى؟ هل حدث لك شيء؟ كنت إنساناً تحب المزاح. والله لا يليق بك هذا الوجه العابس.

وهل بقي هنالك ما يفرح أو يسر القلب كي أبتسم؟ أو حتى تطلب مني ما استدنته منك.. «ما في عونطة».. قلت له:

ـ آمان بالله عليك يا أخي صالح.. لا أستطيع إيفاءك دينك.. والآن أنا بحاجة ماسة إلى عشرين ليرة.

أعطاني المبلغ مباشرة. وهكذا وجدت الطريق الأسلم.. فلو أني أطلب ممن أصادفه مالاً أو قرضاً.. لا أحد يفهم الأمر.. ولا يعلم عني شيئاً.

قال صالح:

ـ لا تكثر على نفسك.. الله كبير..

وخرج.

بعد ذلك جاء (مراد).. وأخذت منه عشرين ليرة أيضاً. وقال:

ـ ما هذا الحال الذي أنت فيه..؟ منظرك يقطع القلب ويجلب الغم.

قلت:

ـ أنا مريض.

قال:

ـ خذ دواءً على الفور.. ونم.

عندما جاءني ضيف آخر بعد أن غادر مراد.. قررت تغيير استراتيجية عملي. على الأغلب كلهم يعرفون أنني ربحت الجائزة الكبرى. وكلهم يسخرون مني. كانوا يظنون أنني أمتحن صداقتهم عندما أطلب منهم قرضاً.

في مناسبة غير هذه، لا أحد منهم يقرع بابي. قليلو الشرف هؤلاء. ولذلك نبهت العائلة وقلت لهم:

ـ إذا جاء أحد وسأل عني، فقولوا له: غير موجود.

في تلك الليلة لم أنم مع زوجتي خوفاً على المليون.. وكانت الليلة الأولى التي افترقت فيها عنها. نمت في غرفة أخرى مدعياً المرض. كنت أرى الجميع أعداء لي.. سيقتلونني ويأخذون مني مالي. أغلقت النافذة جيداً. ومع أنني وضعت الطاولة والكراسي خلف الباب فلم تجد عيناي إلى النوم سبيلاً.. يداي الاثنتان مطبقتان فوق صدري على المال. وعندما كنت أغمض عيني، كنت أرى زوجتي وأولادي وأقربائي وأصدقائي يهجمون علي.. فأستيقظ على صوتي وأنا أصرخ.

بعد ليلة طويلة وشاقة.. جاء الصباح.. قلت في نفسي: لو أضع المال في البنك.. وإذا أفلس البنك.... لنقل لم يفلس.. وإن هبطت قيمة الليرة... لأول مرة في حياتي قرأت صفحة البورصة وأسعار الذهب في الجريدة. المصرف الذي سأضع فيه المال.. ماذا سيفعل يعني؟ سيوظف مالي ويربح بواسطته الأموال الطائلة.. وهل أنا أحمق؟ لماذا لا أوظف مالي بنفسي ويكون ربحه لي وحدي..؟ ولكن إذا وظفت هذا المال، وضاع من يدي كلياً؟ (لو خوزقزني)؟ قلت لو أشتري بضائع بهذا المبلغ.. أو أستثمره في البناء.؟ أشتري عمارة..؟ كي أحافظ عليه.. لا.. يجب أن أستثمره وأجعله ضعفين.. ولكي أحافظ على المليونين.. يجب أن أجعلها أربعة.

عندما أخرج إلى الشارع آكل الكعك.. كي لا يعرف أحد أنني أملك المال. أو أدخل إلى مطعم بسيط.. ووجهي مكفهر على الدوام.. لا أتحدث مع أحد.. كل من أراه من معارفي، أطلب منه ديناً متصنعاً البكاء.. لا أشعر بالنعاس.. لا أستطيع النوم. وفوق ذلك كله، كنت أفكر بطريقة أربح بالمليون مليونين، ومن المليونين أربعة وثمانية ملايين. يجب أن أفعل ذلك.

ماذا أعمل..؟ هل أتعاطى التجارة..؟ أم البناء..؟ أم أشتري مزرعة..؟

أم أعطي أموالاً بالفائدة..؟ لا.. فالتجارة أفضل، وربما أصدرت الحكومة قراراً أو غيرت قراراً.. فأتضرر وأخسر. هل أبني مصنعاً؟ لا. أخشى أن تستورد الحكومة البضائع من الخارج.. عندها (أضرب الطوب) أفلس. يجب أن أنتمي إلى حزب يوافق العمل الذي سأمارسه.. وأعطي ذلك الحزب بعض الآلاف ليشكل حكومة.. فأشتهر ويقولون: «هذا محب للوطن والدولة والشعب». ولكن إذا قلت: «أحب الوطن والشعب» فذلك يعني أن الأموال ستخرج من يدي هنا وهناك.

عليَّ أن أفكر طويلاً..

في البيت أصبحت مثل البارود.. كنت أصرخ:

ـ المدفأة لا تشتغل سوى مرة في اليوم.. فقط في الأيام المثلجة.. شو يعني.. من أين أجلب لكم المال..؟ لا أستطيع جمعه من الأزقة..!

مشاكل كثيرة تراكمت فوق رأسي بسبب هذا المليون..

كل ما كتبته حتى الآن فكرت فيه خلال نصف ساعة.. كنت أروح وأجيء أمام غرفة اليانصيب.. وفي يدي خمسون ليرة.. سعر البطاقة التي كنت سأشتريها. فكرت أكثر من ساعة وأنا أزرع المكان جيئة وذهاباً.. ثم وضعت الخمسين ليرة في جيبي.. وعدت إلى بيتي.

أو و ه.. هكذا أفضل مما لو كنت مليونيراً.. هذه المليونيرية بلاء حقيقي.. لم أستطع تحملها نصف ساعة حتى في أحلام اليقظة. فخرجت عن إنسانيتي وأنا أهيم في دنيا الخيال. كان الله في عون المليونيرين الحقيقيين.

بعد ذلك صرت أقول لمن أغضب منهم:

ـ لن أقول لكم شيئاً سوى: إن شاء الله تصبحون مليونيريين..!

□ □ □

- ١٣ -

ابن بلدنا

الكلمات تأخذ معانيها من خلال ألسنة البشر.. ومهما يكن عدد المعاجم.. فأبناء بلدنا لا يبالون بكل المعاني الموجودة في هذه المعاجم.. افتحوا القاموس وتمعنوا بهذه الكلمات: «بندوق»، «كرهوت»، «بَزَوَنْكْ»، «دَيّوس».. ما معنى هذه الكلمات..؟ بكل تأكيد ليس معناها لا عفارم ولا برافو.. ولا شيئاً من ذلك..

وأبناء استانبول إما أن يكونوا قاطنين فيها أو وافدين.. يقضون فيها بضعة شهور في السنة.. يعملون ثم يعودون إلى بلدهم يمضون ما تبقى منها.. ووجودهم في البلد خلال هذه الأشهر القليلة يزيد من عدد سكان المدينة، ويسهمون في تنشئة وإعداد رجال لخدمته. والوافدون إلى استانبول دائماً.. يبقون فيها لوحدهم.. زوجاتهم هناك في مسقط رأسهم.. يعملن علي تربية وتنشئة أولادهن من الذكور.. حتى إذا ما كبروا وصاروا رجالاً.. يغادرونهم إلى استانبول يبحثون عن عمل مثل آبائهم وأجدادهم. والفتيات يتزوجن.. لينجبن أولاداً ذكوراً آخرين.. ليعملوا في استانبول مستقبلاً.

أما القاطنون في استانبول.. فيعودون إلى قراهم ومدنهم عندما يُضعف العجز والهرم أيديهم وأجسادهم.. وهذه العملية تشبه إلى حدٍّ ما إحالة الموظفين على التقاعد.. ورغبتهم الأخيرة أن تدفن أجسادهم تحت التراب الذي أحبوه وتكوّنوا منه. ولا يريد أي منهم أن يدفن في ديار الغربة.

أما الأعمال التي يقوم بها أبناء بلدنا فمعروفة جداً في استانبول.. إما أن يبيعوا المياه على العربات، أو حراساً للعمارات، أو يعملون في تنظيف الحدائق وزراعتها والعناية بها (بستاني)، وإما خدماً في القصور أو الفيلات.

تعجبني كثيراً أحاديث أبناء البلد.. لأنهم يعطون معاني مغايرة لبعض الكلمات المألوفة والمتداولة في المدينة.. وبمعنى آخر ليس لكلماتهم معاني معروفة أو مطروقة.. وهذه المعاني تتغير وفقاً لأسلوب المحادثة.. أو لقسوة الكلمات أو ليونتها، ورغبة المتحدث، ونوع الحديث، ومستوى الحضور.. فتأتي سلباً أو إيجاباً.

عندي ابن بلد يعمل بستانياً في (أرن كوي).. في حديقة قصر مطل على طريق معبد كبير. أذهب إليه بين الحين والآخر، وأتحدث معه.. وحديثه يعجبني كثيراً.

قبل أيام ذهبت إليه.. كان يصلي فوق أعشاب الحديقة.. وبما أنه بدين.. كان يركع ويسجد ويقف بصعوبة. انتظرته حتى انتهى من صلاته. سلَّم.. واقترب مني وهو يحرك شفتيه داعياً وقال:

ـ أهلاً بك.

ـ أهلاً بك.. كيف حالك يا عماه..؟

ابن بلدي البستاني.. ناهز الستين من عمره منذ وقت طويل.. فقال:

ـ وكيف ستكون حالنا بعد هذا العمر..؟ كما ترى: هرمنا.

ـ لا يا عم البركة فيك.. ما شاء الله أنت مثل السبع.

وفي غمرة الحديث من هنا.. ومن هناك.. دخل الحديقة شخصان آخران.. وأبناء بلدي لهم ثيابهم الخاصة بهم.. أعرفهم من خلالها.. والقادمان أيضاً من أبناء البلد.. كان الشاب يلبس بنطالاً أزرق من

الكتان.. على شكل (كوبوي) لكنه تحول إلى ما يشبه السروال.. أما لباس الآخر.. كان محلياً صرفاً.. ولا تستطيع أن تفرق ثيابه الأصلية عن ثوب خيط من رقع متباينة.

كنا جالسين وسط الحديقة.. عندما اقتربا مني. تعرف البستاني على الشخص القادم.. الأكبر سناً من الآخر.. وقال:

(هنا تبدأ المناقشة بالكلمات المحلية) المترجم.

- أووو.. انظر إلى (بيبك يوسف).. ولك أخي أين أنت.. أين؟

قال الرجل المسن:

- المعذرة يا عمي. أنت في بالي على الدوام لكن الأعمال كثيرة.. ولا يجد الإنسان وقتاً لزيارتك.

التفت ابن بلدي البستاني إلى الشاب وسأل:

- ومن هذا الشاب اليافع؟

- ألم تعرفه يا عمي..؟ ألا تتذكر (غنبور مصطفى)؟

- أي ي ي

- هذا ابن غنبور مصطفى.

- لماذا لم تقل ولك أخي أن هذا الشاب ابن ذاك (الكاوات) (gevat)؟

- نعم.. نعم..

التفت البستاني نحو الشاب وقال له:

- ولك (بزونك).. ألا تستطيع المجيء إلي والسؤال عن خاطري؟

ضحك الشاب خجلاً.. وأطرق رأسه إلى الأرض.. واستطرد البستاني، ابن بلدي حديثه:

ـ ولك الله يطمر موقدك.. واي ولك (بندوق) واي.. ماذا يعمل ذلك الأحمق.. أبوك؟

ـ هو بخير يا عماه.

فرح البستاني برؤية شخص من قريته.. ولهذا كان يضحك على الدوام.

ـ واي ولك كِرَّة الجحش واي.. ولك ابني والله صرت قد الجمل كيه.. كيه.. ما شاء الله.. ما شاء الله.. هاه هاه هاه.. وماذا يفعل خالك رشيد..؟ (كلمة رشيد يلفظها البستاني «إراشيد») الجحش ابن الجحش.. إنشاء الله بخير..؟ هاه.. هاه.. هاه..

ـ هو بخير يا عماه.. وأرسل لك سلامات خاصة.

ـ عليكم السلام.. كيه.. كيه.. كيه.. واي أيها الرجل الكبير واي..؟ ولك ابني أنت كبرت على يدي.. كنت صغيراً هكذا.. ولسه شو في شو ما في؟ عندما تعود إلى القرية قل لأبيك ذلك (الدّيُّوس) إنني أحبه كثيراً.. وقل له ليأت إلي على الفور.

ـ على الرأس والعين يا عماه.

ـ سعدت كثيراً لمجيئكم.. سألتم عني عفارم يا (كاواط).. وماميش ذلك الكرهوت ماذا يفعل؟

ـ هو بخير.

ـ ليكن بخير ذاك البندوق..

كان البستاني يربت على ظهر الشاب القادم من القرية..

ـ انظر إلى هذا الواطي..

قال المعمر:

ـ عن إذنك يا عماه.. سنذهب إلى المقهى.. فهناك بعض أبناء البلد

يجب أن نراهم ونسأل عن أحوالهم.

- حان الوقت أليس كذلك..؟ زوروني مرة أخرى.

- جئنا نبحث عن عمل لهذا الولد.. هل تعرف أحداً ليعمل عنده يا عماه؟

- هذا الرجل الكبير مثل الدب.. بقي عاطلاً دون أي عمل حتى الآن؟

- كان في السجن وخرج البارحة.

- ها ها.. حمداً لله على السلامة.. واه.. واه.. لماذا دخل السجن؟

- جناية..

- هل ارتكب جرماً مخلاً بالشرف؟

- لا..

- واضح أنه أمر مكروه.

وسأل الشاب:

- هل فعلت شيئاً معيباً ولك؟

- لا يا عماه.

أولاد بلدنا متمسكون جداً بكرامتهم وشرفهم.. ولا يريدون أن يتلفظ أحد بحقهم بكلمة بذيئة أو معيبة.. لأنها تندرج تحت: الشرف أولاً، و الكرامة ثانياً. ولم يعاقب أحد من مناطقنا بجرم سرقة أو شقاوة.. شرح الشاب جريمته:

- كنا نلعب الورق في المقهى.. فشتمني رجل هناك..

- هل شتمك؟

- ماذا قال لك؟

- شتمني بكلمة قاسية يا عماه.

ـ شو قال لك ولك روحي؟

ـ أخجل من ذكرها أمامك يا عماه.

تداخل الأكبر سناً بالحديث، وقال:

ـ قال له (ولك).

فأصبح وجه البستاني أحمر كالشمندر لشدة الغضب.

ـ ماذا؟! كيف يقول لك ولك؟! ذاك البري.. وأنت ألم تقل له شيئاً؟

ـ أمعقول يا عمي..؟ طبعاً قلت له..

ـ هل أجهزت عليه؟

ـ ضربته بالسكين.. ولكن الرجل لم يمت، بل جرح.

ـ ليتك أجهزت عليه.. عفارم ولك عملت اللازم.

ـ هل تستطيع أن تجد عملاً لهذا الولد يا عماه؟

ـ الآن..؟ سأسأل الجوار أولاً.. عودوا بعد يومين.

ـ ليكن يا عماه.

ـ إذن قال لك «ولك» ها؟

ـ عن إذنك يا عماه..

ـ مع السلامة.. سعدت بمجيئكم.. عفارم عليك أيها الحمار الكبير.. ولك صرت مثل الدب.. كيه.. كيه.. كيه.. واي أيها الكرّ الكبير واي.. مرَّ الزمن بسرعة كبيرة هاي ي ي. كان مثل جرو صغير.. سلم على والدك (البندوق) وسلم على عمك ماميش (الكاواط).. وسلم على إراشيد خالك الديوس.

ـ على الرأس والعين.. أستودعك الله.

بعد ذهابهما التفت ابن البلد نحوي وقال:

ـ وما نفع ذلك..؟ لم يجهز عليه حتى..!

لا تبحثوا عن معاني الكلمات في المعاجم.. المعاني التي نعطيها للكلمات تتغير كما نريد.. ألم تسمعوا كلام بعض زوار المعارض الذين لا يفقهون شيئاً عن الرسوم.. ماذا يقولون؟؟

ـ واي جحش ابن جحش شو عملها..

هكذا ينتقدون الرسامين.. لقد سمعتموها كثيراً..

□ □ □

ـ ١٤ ـ

الذبابة التي أنجبت بقرة

هنالك كتّاب تربّعوا كالجمال في إحدى زوايا دور الصحف.. يكتبون اللطائف والطرائف.. هؤلاء يعجبونني كثيراً. فقد اعتاد القراء على كتاباتهم، واعتادوا هم أيضاً على قرائهم.

لو أن إنساناً امتلك دجاجة واعتنى بها طوال أربع سنوات.. ومهما كان عقله صغيراً ودماغه مثل دماغ العصفور.. يعرف أن دجاجته هذه لن تلد في يوم من الأيام أرنباً.. على الأقل يعرف أنها تبيض بيضة.. حتى ولو دخل صبيحة أحد الأيام إلى القن ليأخذ بيضة دجاجته.. فشاهد هناك فرخ أرنب صغير قرب البيضة، فهل يقول: «آ آ آ.. لقد ولدت دجاجتنا أرنباً»؟

والعلاقة بين القراء وكتاب الطرائف تشبه إلى حد ما.. علاقة الرجل بدجاجته تلك.. فعندما يفتح القراء الجريدة لتصفح ما كتبه ذلك الصحفي أو الكاتب في زاويته.. يعرفون مضمون ما كتبه قبل قراءته.

طوال حياتي ككاتب تمنيت أن أكون مثل هؤلاء الصحفيين الذين يحتكرون زوايا إحدى دور الصحف ويكتبون. فالقارئ ينتظر منك كل يوم أن تلد له بيضة. لا أن تلد له جملاً أو فيلاً.

إنه لعمل مريح..

أما كاتب مثلي.. يبحث عن صحيفة ليكتب فيها.. فالقراء.. وصاحب الجريدة يطلبون منه أن يلد كل يوم مولوداً جديداً.. ويجب أن

يكون المولود مغايراً للآخر.. وساخراً أيضاً.

لنقل إنك قدمت في مقالتك الأولى شيئاً بحجم بيضة العصفور.. ففي المرة الثانية.. يجب أن تكون البيضة أكبر، بحجم بيضة الدجاجة مثلاً، حتى يقولوا عنك:

ـ ما شاء الله.. لقد باض بيضة كبيرة.

أما في المرة الثالثة فأنت مضطر أن تلد بيضة بحجم بيضة بطة. وفي الرابعة بحجم بيضة النعامة. ولا يحق لك أن تلد بيضة النعامة مرتين متتاليتين. في المرة الخامسة يطلبون منك أن تلد النعامة ذاتها. ولا تعفيك كذلك ولادة النعامة.. فيطلبون منك أن تلد جملاً: «هيا.. لنرى كيف ستلد جملاً».

لذلك كرهت أن أكون صحفياً متنقلاً.. باحثاً عن الصحف. الكتاب الصحفيون يشبهون الباعة المتجولين الهاربين من شرطة البلدية والتموين.. كما أنك لا تستطيع أن تعتمد زبوناً تركن إليه على الدوام.. ولا تستطيع أن تقنعه بجودة بضاعتك.. فتضطر إلى بيعها له بثمن بخس.

طوال حياتي.. لم أشأ أن أبلع لقمة كبيرة تمزق فمي. أو أن أقدم شيئاً ضخماً لأسخر من الآخرين. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

ذات مرة، لم يبق بيني وبين السقوط سوى شعرة واحدة، ولولا تلك الحادثة.. كنت الآن في وضع جيد أكتب في زاوية جريدة دائمة، وألد كل يوم بيضة دجاجة.

كنت أعمل في صحيفة.. صاحبها.. لن أذكر اسمه الحقيقي، لأنه أمر معيب.. كان معلمي كاتباً صحفياً مشهوراً.. لنقل إن اسمه (هاظم).. كانت كتاباتي تعجب السيد هاظم هذا كثيراً.. كان على وشك أن يكلفني بكتابة الطرائف، علماً بأنني أكتبها بين الحين والآخر. غير أنني لم أستقر بعد وبشكل نهائي في إحدى أركان الصحيفة.

في أحد الأيام.. جئت إلى الصحيفة باكراً.. رنَّ الهاتف.. رفعت السماعة:

- نعم.

سألني المتحدث:

- من أنت؟

قلت:

- أنا حسن.. ومن أنتم؟

- أنا كاظم.

- أنت ولك كاظم؟

- نعم أنا هو.

- ماذا تريد ولك؟

كاظم هذا صديق قديم جداً.. لكن فظاظته لا تعجبني، وكذلك سخريته ومزاحه الكثير.. فأمثاله يجعلون منك فظاً.. غليظاً.. رغماً عنك.. ولا أدري إن كان هذا يحصل معكم. إذا التقيتُ مع كاظم هذا لا أستطيع التحدث معه؟؟؟ بالسب والشتائم (و«الولكات» جمع ولك).. فإما أن أصمت كلياً، أو أن أكون فظاً أكثر منه حتى أستطيع السيطرة عليه.. وبما أنه صديق قديم جداً.. يعز علي مجافاته والتشاجر معه، ولذلك تغذيته قبل أن يتعشاني، فأغلظت الكلام معه، وقلت له على الهاتف:

- ماذا تريد ولك؟

عندما قلت له ذلك احتار في أمره، فأنا متأكد أن عديم التربية، يجب أن تعامله بالمثل، وبذلك تتقي شره، وتضمن لجم لسانه. قال لي بصوت ناعم:

- يا سيد حسن..

ـ شوية.. شوية.. منذ متى بدأت باستعمال هذه الكلمات اللطيفة؟

ـ أرجوك.. عد إلى رشدك.

ـ واي.. واي.. واي..

يبدو أنني أغظت (كاظمنا) كثيراً.. فرحت لذلك لأنني لو لم أفعل ذلك لأغاظني هو..

ـ أوجز بالحديث.. وقل ماذا تريد.. لا أحب الثرثرة أكثر من اللازم.. هنالك أعمال كثيرة تنتظرني.

ـ معذرة.. ربما أخطأت بطلب الرقم.

ـ لا لم تطلب رقماً آخر.. أنا حسن الذي تعرفه.. ماذا تريد؟

ـ لن أخرج من البيت هذا اليوم..

قلت له قبل أن يتم حديثه:

ـ ولك مصروع.. هل تسخر مني؟ ولك متى هجرت زوايا الفنادق حتى يكون لك بيتٌ؟

ـ أرجوك.. يا سيد حسن.. أرجوك.

ـ ولك مجنون.. أنا أعرفك جيداً.. يبدو أنك لازمت طاولة في أحد الأوكار حتى الصباح.. ولم يبق معك أجرة السيارة.. أو ما تسدد به فاتورة للفندق.. فرهنت نفسك.

ـ أرجوك يا سيد حسن.. أرجوك.

ـ ما هذا الترجي ولك مصروع..؟ قل ماذا تريد؟ «شو ها السيد حسن» سيد حسن..؟

ـ أرسلوا أحداً من الجريدة.. كي يأخذ مقالتي.

ـ وما هذه الكتابة ولك (زبيدي).. هل تكتب أيضاً؟

ـ أكتب «على قد حالي» حسب مستواي.

ـ هل تملك بيتاً أيضاً؟

ـ ايه.. أملك بيتاً متواضعاً يكفينا.

هنا هدأت ثورتي وبدأت أعود إلى رشدي.

ـ أين منزلك؟

ـ في جادة البستان.

ـ ما اسمك؟

فتحت أذنيَّ جيداً.. سمعت كل حرف نطق به (هاظم). كاد قلبي يتوقف! إنه صاحب الجريدة هو الذي يتحدث.. علي أن أتحرك سريعاً لأنقذ نفسي من هذه الورطة؛ هل أرجوه وأطلب منه السماح؟ وهل سيقتنع أنني أخطأت بين كاظم وهاظم..؟ هل سيصدقني؟ أفضل شيء أن أستمر كما بدأت. قلت:

ـ اسمعني جيداً ولك كاظم.. لا داعي للثرثرة.

ـ يا سيد حسن.. أقول لك يا سيد حسن..

ـ لا تحاول إقناعي.. أنا أعرف قصدك جيداً. يبدو أنك نويت أن تسخر مني.. وانتحلت صفة صاحب الجريدة حتى توقعني في خانة (اليك).

ـ يا سيد حسن والله أنا....

ـ اذهب إلى عملك وإلا.. «الشيء ابن الشيء».. أخبر عنك الأمن بأنك تنتحل صفة الأناس الطيبين الأدباء ذوي الشرف والأخلاق.. كفاك ثرثرة.. واتركني أعمل.

أقفلت سماعة الهاتف في وجهه.. وبدأت أنتظر النهاية بغليان وترقب. كانت النهاية.. كما تعرفونها.. في اليوم التالي لم تنشر الزاوية الرئيسية في

الجريدة.. وطُرِدتُ. وهكذا أكون قد فوَّتُّ أعظم فرصة تخولني التربع مثل ذكر الجمل في زوايا إحدى الصحف.

أعمل الآن صحفياً سياراً.. أصحابَ الجرائد والمجلات، أنتم قرائي الأعزاء، تنتظرون مني أن أقدم لكم كل يوم شيئاً جديداً.. فعندما تقرؤون كتاباتي ستقولون مندهشين:

ـ آ آ آ.. انظروا لقد أنجب فيلاً هذا اليوم أيضاً.

أنا أعرفكم جيداً.. وأعرف أصحاب الجرائد.. لأنكم تدفعون بضعة قروش. تحاولون إخراج بقرة من ذبابة.

□ □ □

- ١٥ -
شبح أو بعبع

صلى والدي صلاة العشاء ولبس ثياب نومه وقال:

- أنا ذاهب إلى النوم.

أما أنا، فلبست البيجامة المزركشة بالأحمر والأصفر التي خاطتها لي شقيقتي.. وتمددت على السرير. كل ليلة أقرأ صحيفة مسائية.. كانت الصحيفة تعجبني كثيراً.. أليس من التسلية بمكان لإنسان مثلي.. يحمل الشهادة الثانوية ولم يستطع إكمال تعليمه الجامعي.. أن يقوم كل يوم بفضح أخطاء كتاب الزوايا في اللغة التركية؟ كثيرون مثلي يحبون هذا العمل.

- كان الكاتب الصحفي ينتقد وزير خارجية إنكلترا وتصرفاته، فهو لا يعجبه شخصياً لأنه دائماً يأخذ رأي رئيس جمهورية أمريكا، ويفتح الطريق الآمنة أمام السكرتير العام للأمم المتحدة، ويطلب منه أن يقوم بعمله على أكمل وجه. ومن المعيب جداً على زعماء العالم، إذا لم يتعلموا اللغة التركية، ولم يستفيدوا من التوجيهات والإرشادات التي ينشرها كتابنا في زوايا الصحف.

أكملت قراءة المقال الافتتاحي، وتصفحت حلقة من حلقات الصحابي (أبو أيوب الأنصاري)، ثم انتقلت لقراءة حلقة من حلقات رواية «فاحشات بيزنطة الشبقات». كل ليلة أقوم بذلك.. عندما أقرأ مقاطع من حياة (أبو أيوب الأنصاري).. ترتاح نفسي وأحس بالأمان والطمأنينة،

وتتنقى أعماقي من كل الخطايا.. وعندما أنهي حلقة من رواية «فاحشات بيزنطة الشبقات».. أطفئ المصباح وآوي إلى فراشي.

ليعف الله عن ذنوبنا جميعاً.. أنا في الذنب والثواب على السواء.. عندما أقرأ «بيزنطة أوروس».. المعذرة.. «فاحشات بيزنطة» أتحمل قسطاً من الذنوب.. وعندما أقرأ حياة أبو أيوب الأنصاري.. أو غزوات الإمام علي.. أكون قد مسحت ذنوبي كلها.

في تلك الليلة أنهيت «أشياء بيزنطة» لتوي.. وكاتب هذه الرواية.. من دهاة الكتاب.. لأنه كان يقطع الرواية في مكان.. يصعب على العزاب مثلي انتظار الليلة القادمة ليعرف التتمة.

وحينما كنت أمد يدي لأطفئ المصباح الكهربائي، وإذا بالباب الخارجي يقرع بقوة مراراً.. قلت لأبي: «لنضع جرساً على هذا الباب» لكنه لم يبال متذرعاً بأن الجرس يعمل (كونتاكاً) فيحترق البيت. فأقول له: «هذا هو المصباح الكهربائي، لماذا لم يحرق البيت؟» فيجيب: «ن النار لا تخرج من المصباح».

على باب بيتنا الخارجي.. مطرقة حديدية كبيرة الحجم، بحجم قبضة اليد.. عندما يقرع الباب بهذه المطرقة يهتز بيتنا الخشبي المكون من طابقين.. وتتحرك المسامير من أمكنتها.

على صوت المضرب.. سمعت صوت الخالة (أمينة هانم):

ـ بنت رشيده ه ه ه..

أجابتها أمي من غرفة النوم:

ـ أنا قادمة.. يا خالة أمينة.

بعد أن هبطت أمي الدرج. كنت أسمع مقاطع من مناقشتهن:

ـ قولي لسليمان أفندي أن ينزل على الفور يا رشيدة.

- ولك حبيبتي لم نكد نأوي إلى فراشنا.. ماذا هناك يا خالة أمينة؟ أخشى أن يكون النجار حسين يضرب زوجته أيضاً؟ إنشاء الله تُقطع يده ويعجز عن الإمساك بقدوم.. آه كم تعاني هذه البنت فتحية على يد هذا الرجل.

- لا يا حبيبتي لا.. لو كان ضرباً لهانت الأمور.. هناك شبح.. شبح..!

- هل تقولين شبح..؟ لا تقوليها أرجوك.

- والله..

- أين..؟

- في المقبرة.

- آ آ آ.. أنا أخاف من الشبح.

- ومن الذي لا يخاف من الشبح يا ابنتي؟ أخبري زوجك لينزل على الفور.

نزلنا على الفور دفعة واحدة.. لبس أبي (مشمعاً) فوق لباس نومه.. وقال لأمي:

- هانم.. هو.. أشعلي هذا المصباح.

أشعلت أمي شمعة الفنار الزجاجية. خرجنا إلى الشارع معاً فوجدنا أهل الحي متجمهرين فيه. وعندما هممنا بالسير نحو المقبرة.. سمعنا مختار القرية (أبا ذر)، وهو بالأصل شرطي متقاعد (كوميسير)، يقول رافعاً صوته:

- أخبروا السيد محسن أيضاً.

والسيد محسن هذا موظف في البريد (PTT).. ومن وجهاء الحي، أما إمام الجامع شوكت أفندي فقال:

ـ أخبروا ياسين آغا وحسمان آغا أيضاً..

لو اجتمع أهل الحي كافة.. ولم يذهب معنا هذان الشخصان.. يكون القضاء على الشبح من رابع المستحيلات. وياسين آغا يعمل في سوق الفواكه.. مرشداً. أما السيد حسمان فيعمل (عربجياً). وهما من أشجع الرجال في محلتنا.. وعندما قال صاحب المطبعة (الأسطة عزيز):

ـ لنرسل خبراً إلى (ياني)..

قامت القيامة.. قال الإمام شوكت أفندي.. وكأنه يصدر فتوى:

ـ لا ضرورة لذلك.

أما الخالة أمينة فصرخت قائلة:

ـ ما دخل الغرباء في مجال الأشباح؟ بالأصل كل هذه المصائب بسببهم.. طبعاً سيتحول الأموات إلى أشباح إذا سكن الغرباء حارتنا.. لو كنت أنا.. لصرت شبحاً أيضاً.. ولكن الشكر لله، لم تتحول المقبرة كلها إلى أشباح وهاجمونا.

أما رمزي أفندي مؤذن المسجد فقد قال:

ـ لا تقولي هذا الكلام يا خالة أمينة.. الله تعالى وحده يعرف النيات.. وهو الذي يزرع الهداية في النفوس. لا تنظري إلى ظاهر الإنسان.. انظري إلى ضميره.. إلى أعماقه.. لا أحد يعرف ما يبطن الآخر..

اجتمع أهل الحي كلهم.. عدا (ياني) الذي كان يعمل بستانياً في دائرة البريد المجاورة تماماً للمقبرة. كل واحد يحمل في يده فناراً.. وتحول المكان إلى ساحة مضاءة بالفنارات.. ونظراً لوجود أكثر من تسعة مزارات.. فكان كل بيت يحتفظ بمجموعة كبيرة من

الشموع. واعتاد الأولاد على سرقة الشموع التي توضع في المقامات أو على الأضرحة كنذر، وأخذِها إلى بيوتهم.. ليس الذنب ذنبهم.. فالمقامات قليلة والشموع كثيرة.. لو كان عندنا تسعون مقاماً لكفى ووفى وزاد.

وكما يقولون، والذنب على من ارتكبه: إن المؤذن رمزي.. يجمع الشموع من المقامات ويبيعها في السوق.. والتبعة تقع عليه وحده. أما الآخرون فيقولون: نحن نشعل الشموع في بيوتنا.. أما والدي فقال:

ـ عندما تشعلون الشموع أشعلوها على نية الأولياء والصالحين.

أما نحن الصغار.. عندما نشعل عود الثقاب فنقول:

ـ بسم الله.. على نية الوالي سيكللي (والدادا ألكلي).

نقول ذلك ونشعل الشموع.

والأطفال أيضاً لم يحرموا أنفسهم من النزول إلى الشارع.. فقالت الخالة أمينة طاردة الأطفال فالازدحام شديد:

ـ اذهبوا إلى بيوتكم أيها الأشقياء.

قالت زوجة النجار علي فردوس لزوجها من النافذة معقبة على أولاد القذارة:

ـ مهلك يا حبيبي.. انتظرني حتى أنظف سُفل الولد لأذهب معك.. لم أر في حياتي بعبعاً أبداً.

وبدأ النجار علي يكفر ويشتم زوجته.. لو أن الشريعة القديمة طبقت لكانت زوجته طالق منه مائة مرة. البركة في القانون المدني والنكاح المدني.

اتجه الجميع صوب المقبرة.. جماعات.. الأطفال والشيوخ والرجال والنساء. هل شاهدتم شبحاً في حياتكم؟ أنا شخصياً لم أره ولو مرة

واحدة.. أخاف من الشبح كثيراً.. وكان أبي يغضب أمي كل ليلة عندما يقول لها:

ـ أنا أرى كل ليلة شبحاً.

أما أمي فكانت تقول:

ـ هل كنت هكذا عندما تزوجتني؟ انظر إلى نفسك في المرآة.

كانت خطواتنا تقصر باطراد.. كلما اقتربنا من المقبرة. والذي ادعى أنه شاهد الشبح أول مرة هو ابن البقال سعيد.. حيث قال:

ـ ها هنا.. الشبح داخل هذا القبر.

العربجي حسمان لم يؤمن بوجود الشبح، فقال لابن البقال سعيد أفندي:

ـ ولك ابن أخي ربما تكون قد رأيت شيئاً آخر.. مثلاً ربما رأيت حماراً لا على التعيين، أو كلباً مثلاً.

والولد يقسم بالله:

ـ لا يا عمي حسمان.. أقسم بالقرآن الكريم بأني رأيت الشبح بعيني هاتين.. فلتخرج عيناي من وجهي وأحرم من النعمة إذا كنت أكذب.. لقد رأيت الشبح، والله رأيته يا عمي.. رأيت الشبح ممسكاً بشبح آخر وأنزله على الأرض.

ـ كم شبحاً رأيت ولك ابني؟

ـ أحدهما شبح، والآخر لم أعرف كنهه.

قال أب الولد:

ـ ولك جحش ابن جحش. وهل رأيت في حياتك شبحاً حتى تعرف أحدهما ولا تعرف الآخر؟

ـ لم أره يا أبي.. ولكنه معروف.. والله كان معروفاً.. كان معروفاً من

حديثه ولك بابا.. ثم إن الخالة أمينة شاهدته عدة مرات.. وقصت علي ذلك.

كانت خطواتنا تقصر وتقصر كلما اقتربنا من المزار، أو القبر الذي دخله الشبح.. أما أنا فحافظت على بقائي في مؤخرة الزحام تحسباً لكل طارئ. ولم أتراجع أكثر من ذلك.. كي أشاهد الشبح عن كثب.

كان الجميع نادمين، أو هكذا تراءى لي.. أما إمام الجامع شوكت أفندي، والذي شغل المقدمة كونه الإمام.. فقلت:

ـ حصل خير لأننا اجتمعنا سوياً.

قال ياسين آغا:

ـ حتى لو جاء الجيش بكامل عدته وقوته.. لا يستطيع القضاء على الشبح.. لأن شبحاً واحداً يقاوم الدنيا بأكملها.

قال ولد صغير، وكان يقف بين ساقي:

ـ يوجد جاويش في مخفر الدرك اسمه عزت.. الشبح يخاف منه.. ولا يقدر أن يفعل له شيئاً.

ضحك ياسين آغا وقال:

ـ لا عتب.. هذا تفكير طفل ليس إلا.. يا ابني، الشرطة يقوون على الأحياء فقط.. أما إذا مت.. فذلك يعني أنك تخلصت منهم.. ليس شاويش جندرمة فقط.. حتى ملائكته لا تستطيع أن تفعل شيئاً للشبح.

كان المختار (أبا ذر) يمشي خلف الكتيبة.. فهو متقاعد ومفتش شرطة.. وإذا حدث وهاجم الشبح الموجودين.. حتماً سيوجه الضربة الأولى لمن هم في الطليعة، ويقبض عليهم.

كان أبو ذر يقول:

ـ آه لو كان مسدسي معي.. على كل متطوع في الشرطة أو منتسب

إلى جهاز الأمن.. أن يبقى حاملاً مسدسه حتى بعد التقاعد.. لا أحد يعرف ماذا يحصل.. كما هو الآن وفي هذه الليلة بالذات.. فلربما خرجت بمهمة طارئة فتتوخى الحذر.

ـ ولكن.. يا عمي أبا ذر.. يقولون إن الرصاصة لا تؤثر في الشبح.

ـ مسدس رسمي ولك.. شو يعني لا تؤثر..؟ هي من حيث التأثير، تؤثر. ولكن بما أنه شبح لا تفعل معه شيئاً.

ـ ألا تحمل معك صفارتك؟

ـ وماذا أفعل بها؟

ـ تصفر بها.

ـ هل نحن في عيد حتى أستعملها؟ ولك عيني.. هذا شبح.. لا تهمه الصفارة، ولا يفهم معناها؟ أما إذا كانت روحه روح (بائع بالي) لا أستطيع مخالفتك.. ربما يظن أن الصفارة هي صفارة ظابطة البلدية أو التموين ويهرب.

كل واحد يقص حكاية شبح.. لكن أكثرها انفعالاً وحرارة كانت حكاية الخالة أمينة. قالت شو.. إن الأشباح تحب المعلاق كثيراً.. وخاصة معلاق البنت..!

وصلنا القبر الذي فيه الشبح.. فالتفت الإمام شوكت أفندي نحو الآخرين وقال همساً:

ـ اسكت ت ت تو و وا و و وا..

فانقطعت أنفاسنا ولفنا صمت القبور.. فقال أحدهم من قربي:

ـ ألا تسمع؟

ـ نعم أسمع؟! إنها أصوات الأشباح التي في القبر.

كانت الأصوات تشبه إلى حد بعيد صوت مذيع راديو أنقرة.

ـ صوت أحدهم كأنه صوت امرأة على الأغلب..

ـ صوت امرأة..

ـ إذاً.. عائلة كاملة تحولت إلى أشباح.

مجموعة حاملي العصي والرفوش حاولوا هدم القبر.. إلا أن الإمام شوكت أفندي منعهم من ذلك وقال:

ـ ليس بالعصي والضرب. وإنما بالدعاء والطلب إلى الله.. نطردهم من هنا.

كنا نسمع الأصوات الصادرة من القبر واضحة لا لبس فيها، صوت شبح ذكر يقول:

ـ كلني..

أما الشبح الأنثى كانت تقول له:

ـ كلني.

ـ روحي.

ـ فلذة كبدي.

ـ رئتي.

ـ كلني..

ـ روحي.

ـ كلني..

قالت الخالة أمينة:

ـ الأشباح تأكل رئتي بعضها.

عندما حملت الريح بعض الأنسام الذكية من جهة القبر.. شعرت وكأنني فهمت مضمون الأمر.. إنها رائحة العرق الطيبة.

- كلني..!

- كلني..!

وحسمان آغا أيضاً اتضح له الأمر مثلي.. فقال:

- ولك عمي.. أي شبح هذا..؟ الناس ؟؟؟؟؟؟ اجتمعت هنا تأكل بعضها.

غضبت الخالة أمينة وقالت دون أن تفهم ما يقصد:

- هذا هنغاري، والهنغاريون لا يعتقدون بالأشباح ولا بالجن ولا بالشياطين.

بدت الخالة أمينة حزينة ويائسة.. لأنها شعرت أن الأشباح لن تخرج من حفرة القبر.. وفجأة ارتفع صوت غناء داخل الحفرة. «عربته ذات ثلاث عجلات.. ينقل الفتيات إلى باي أوغلو».

أوقف الإمام شوكت أفندي حاملي العصي بصعوبة بالغة.. وقال:

- هيا.. لنبدأ الدعاء معاً دفعة واحدة.

عندما بدأنا بالدعاء سوية.. وإذا بصوت يخرج من حفرة القبر.. وأطل منها رأسان دفعة واحدة. وخرج شخصان وابتعدا عن المكان بسرعة بالغة. كانت الأنثى الشبح عارية تماماً.. كاللواتي يصعدن لعرض أجسادهن (STRIP) وهربا نحو البساتين.. واختفيا ضمن الحلكة.

اقتربنا من حفرة القبر.. فرأينا زجاجة عرق تسع ليتراً، لم يبق منها سوى النصف.. وعلبة كونسروة مفتوحة.. بندق وفستق.. وأشياء أخرى.. هذه الأشياء الأخرى التقطتها الخالة أمينة قبل أن يراها أحد ووضعتها تحت ثيابها.

عدنا إلى منازلنا ونحن نتحدث عن الأشباح وما شابه.

صباح اليوم التالي قصدت (عبدي) بن حسمان آغا وقلت له:

ـ ولك واطي.. الذئاب لا تأكل بعضها.. ألم تخجل من الاعتداء على ابنة الخالة أمينة الليلة البارحة؟

تظاهر كأنه لا يعرف شيئاً..

ـ ولك واطي رأيت ثيابها الداخلية.. لو لم تبادر والدتها إلى جمع أمتعتها قبل أن يراها الآخرون لتسببت بفضيحة لا تحمد عقباها لك ولها.

لم يعد الإنكار يفيده بشيء، قال:

ـ طيب ماذا أفعل يا أخي..؟ أريد الزواج ولا أملك المال.. ولا أتزوج لأن المسؤولية كبيرة.. وكما تعلم إيجار البيوت مرتفعة جداً.. قلت إذا ذهبنا إلى الفندق.. من جهة غالي الثمن، ومن جهة أخرى، مهدد بمداهمة الشرطة الأخلاقية له في أي وقت.. فنزلنا إلى حفرة القبر ظناً بأنه لن يرانا أحد، ولا يأتي أحد إلى المقبرة. حتى أننا هناك لم نهنأ.

قلت له:

ـ عوضاً عن الزواج.. ادفع خمسة عشر قرشاً واشتر الصحيفة المسائية التي أشتريها كل يوم.. وعندما تقرأ زاوية «فاحشات بيزنطة الشبقات».. فلا داعي بعدها أن تكون شبحاً أو تتزوج.

قال عبدي:

ـ آه.. آه.. هل رأيت إيجابيات التعلم.. والدي لم يعلمني.. وأنا أميّ لا أعرف الكتابة ولا القراءة. ولهذا نحن مضطرون أن نتحول إلى أشباح بين حين وآخر.

□ □ □

- ١٦ -

هواء استانبول

في صالة الانتظار بميناء (قاضي كوي البحري) هاتفان مكشوفان، وهكذا فجميع الموجودين في الصالة يسمعون ما يجري ضمن المكالمات الهاتفية. قلت أسلّي نفسي حتى يحين موعد الباخرة، بالاستماع إلى المتحدثين، وأشعر بلذة عارمة. حتماً ستقولون هذا عيب..! أنا شخصياً لا أصغي إلى أي متحدث قصد التجسس أو التلصص.. لأن هذه المكالمات ليست سرية ولا مغلقة.. فالمكالمات مكشوفة للملأ يسمعها الجميع.. إذا لم يكونوا صماً. وهكذا يكون الحاضرون مجبورين على الاستماع.. إلا إذا أغلقوا آذانهم خوفاً من العيب أو ما شابه.. فلهذا شأن آخر.

كانت هذه المكالمات الهاتفية مسلية جداً في أكثر الأحيان.. وكم تمنيت لو أني أملك آلة تسجيل لأحفظها على شريط.

جئت إلى ميناء (قاضي كوي).. قبل أكثر من عشرين دقيقة لتحرك السفينة.. ووجدت مكاناً فارغاً في قاعة الانتظار.. جلست فيه وكانت هذه فرصة طيبة لي.. وضعت محفظتي على ركبتي وأخرجت ورقة وقلماً.. ودونت كل ما دار من أحاديث في هذين الهاتفين.

وربما يكون أحدكم هو المتحدث آنذاك، أو ربما.. يكون المتلقي. في هذه الأثناء.. لو لم تتصلوا من هذا الصالون.. أو لو لم يتصل أحد بكم من هناك.. ربما أجريتم من مكان آخر وفي زمان آخر هذه المكالمة.

المكالمات التي سجلتها على دفتري.. أنا شخصياً وجدتها مسلية وجميلة.. لنر ماذا سيكون رد فعلكم.. وما هو رأيكم بهذا الموضوع..

أذكّر مرة أخرى: المكان صالون الانتظار في ميناء (قاضي كوي) الملاحي، الساعة ١٣٠٠، شتاء. أما الهواء فكان صيفياً فاتراً.. والجو مكشوفاً.. والبحر هادئاً جداً. رجال ونساء كثيرون يقفون أرتالاً على الطرفين ليتحدثوا بالهاتف. أمسك بالهاتف الشمالي رجل متوسط العمر.. أنيق الثياب. وعلى الهاتف اليميني، كانت امرأة تلبس على رأسها قبعة تشبه المزهرية أو عش الطير.

الرجل الذي على اليسار ـ ألو.. ألو.. سماحات.. ألو سماحات.. أنت يا ضنايا؟ أنا الآن في المكتب.. وأتصل بك من هنا.

المرأة التي على اليمين ـ ألو.. ألو.. فائق.. ألو فائق.. أنت يا روحي.. أنا الآن في المشفى.. وأتحدث معك من هاتفه.

الرجل الذي على اليسار ـ ضناي ألا تتذكرين.. نحن على موعد مع الأمريكيين..؟ نعم ذلك العمل سيتم إنشاء الله. الهيئة الأمريكية الآن في مكتبي.. وسنبدأ بمناقشة الموضوع (في هذه الأثناء تصفر السفينة في الميناء، فتسمع زوجته صفير الباخرة).. ماذا..؟ صوت صفارة..؟ ما هذه الصفارة يا روحي؟ هل تظنين أن شخصاً يصفر عندي ها؟ فهمت. وكما تعلمين أن الأمريكيين لهم شذوذات.. ماذا نفعل؟ الله سبحانه وتعالى خلقهم هكذا شواذ.. فرئيس الهيئة الجالس معنا له طبع خاص. يخرج الصفارة من جيبه بين الحين والآخر ويصفر.. اسمعيني..!

المرأة التي على اليمين ـ أنا في المشفى منذ الصباح يا فايق.. ولم يسمح لي الأطباء بزيارة أمك حتى الآن.. ويقولون إن الكلام معها ممنوع البتة (في هذه الأثناء يسمع صوت بائع الجرائد الذي دخل الصالون لتوه: الجرائد تكتب..) .. ماذا..؟ ماذا تقول يا فايق؟ ماذا تكتب الجرائد؟ آ آ..

هل جننت؟ ما من أحد قربي والله. أنا أكلمك من المشفى ولك روحي.. من سيكون قربي؟!

الرجل الذي على اليسار ـ اسمعيني يا ضنايا.. كما تعلمين.. الواجب يقضي بتكريم هذه الهيئة وتأمين ما يلزم من طعام وزيارات سياحية إلى هنا وهناك.. لذا.. قد لا أحضر إلى البيت هذه الليلة.. أما إذا استطعت التخلص منهم.. سأحضر إلى البيت باكراً يا ضنايا (صفارة موظف الميناء تصدر.. فير.. فيرر). اسمعي هذا الأمريكي.. يا له من رجل غريب الأطوار! فير ر ر.. فير ر ر.. على الدوام يصفر.. هيا يا روحي أستودعك الله.. ولا تنتظريني.

المرأة التي على اليمين ـ الأطباء لا يسمحون لي بمحادثتها.. رجوتهم كثيراً.. ولكنهم لم يسمحوا لي (بائع الجرائد: في شعب نعم في شعب).. ماذا؟ لا أفهم.. هل تقول الشعب..؟ لا ليست ملّة يا روحي بل علة.. يقول الدكتور إن علة قد ظهرت معها ولا يسمح لي بمحادثتها. ويجب أن تنام في المشفى ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل. هل أحضر إليك..؟ شو ولك روحي كيف أترك هذه المرأة المسكينة وأحضر إليك؟ أليس حراماً؟ سأنتظر هنا حتى المساء.. ربما أجد وسيلة وأتحدث معها. لا تنتظرني يا فايق.. أنا في المشفى حتى المساء.. أستودعك الله.

بعد ذلك استلم شاب الهاتف الذي على اليسار، وأدار الأرقام.. وإلى الهاتف الذي على اليمين وقفت فتاة.

الشاب الذي على اليسار ـ ألو.. بابا.. ألو.. أنت يا أبي.. أنا (ياجين).

الفتاة التي على اليمين ـ ألو.. ماما.. أنا (آيلا.. أتحدث معك من منزل (غولبين).. لا تسأليني يا أمي.. المطر غزير في الخارج.. السيول تجرف الحصى والأتربة معها.. كيف؟ هل تقولين إن الجو عندكم جميل؟ تقولين مثل الصيف؟ لا أدري.. الوضع هنا سيئ جداً.

الشاب الذي على اليسار ـ بابا.. أنا الآن في (بايكوز) وأتحدث منها.. لم أجد السيد جعفر في منزله.. سألت عنه.. لا أحد يعرف مكانه، ويقولون إنهم سيبحثون عنه بواسطة الجرائد (البحث عن مفقود). تقول منذ متى..؟ العاشرة من صباح هذا اليوم.. يقولون إنه خرج من منزله.. ولم يعد بعد.. تقريباً منذ أسبوع وهو غائب عن المنزل.. تقول هل أحضر فوراً؟ آمان يا بابا وكيف أذهب؟ ألا ترى الجو؟ وماذا في الجو؟ الجو سيئ جداً.. ثلوج وعواصف.. وصقيع وجليد. قبل قليل طارت امرأة وسقطت في البحر.. جليد لا تسأل.. تقول إن الجو عادي عندكم.. وإن الشمس ساطعة؟ كما تعرف يا أبي هواء استانبول خداع من الدرجة الأولى.

الفتاة التي على اليمين ـ بالله عليك يا أمي.. بقيت هنا ولا أدري ماذا أفعل.. ولا وقت لدي كي آتي إليكم.. المطر غزير، والبرد قارس.. ماذا تقولين يا أمي..؟ السيول جرفت سيارة أمام أعيننا.

الشاب الذي على اليسار ـ سأنتظر تبدل الطقس يا أبي.. لا تهتم.. سأجد مكاناً للنوم.. كما تريد يا أبي.. لن أخرج إلى أي مكان.. (فتاة قريبة من الشاب تضحك).. ماذا تقول؟ هل سمعت صوت فتاة؟ تسمع ضحكة فتاة؟!.. أية فتاة يا أبي؟ لا لا.. أشعر هكذا بعض الأحيان. هيا أستودعك الله يا أبي.. سأرجع حتماً عندما يعود الطقس إلى حالته العادية.

الفتاة التي على اليمين ـ ماما.. سأظل عند غولبين حتى يصحو الجو.. ماذا؟ هل تريدين محادثة أم غولبين؟ أمها في المطبخ.. وكيف أناديها يا روحي..؟! هل من المعقول أن أناديها إلى الهاتف وهي في المطبخ.. ماذا تقولين..؟ تريدين محادثة غولبين..؟ بالله عليك يا أمي.. المسكينة تدرس في غرفتها. لا عليك يا أمي.. عندما يتوقف المطر وتنقشع الغيوم سأعود

إليك. لا لن أخرج.. لن أخرج إلى أي مكان.. وكيف يخرج المرء في مثل هذا الجو؟ كما تريدين يا أمي.. أستودعك الله.

الهاتف إلى اليسار تولاه رجل.. والهاتف إلى اليمين امرأة.

الرجل الذي إلى اليسار ـ يا سيدي.. ألو.. أنا شهاب.. يا سيدي.. منذ الصباح حتى الآن أنتظر الباخرة في ميناء (قاضي كوي).. لا يا سيدي.. السفن لا تعمل.. الضباب كثيف جداً.. والرؤية مستحيلة. أنا شخصياً وجدت الميناء بصعوبة بالغة.. ويقال إن رجلاً سقط في البحر عن الرصيف. لن أستطيع الحضور يا سيدي.

المرأة التي إلى اليمين ـ ألو.. أريد التحدث مع السيد (صدقي).. ألو.. صدقي.. بقيت في (بنديك).. وأتحدث من منزل (ناظان).

الرجل الفتي الذي إلى اليسار ـ لن أذهب اليوم إلى العمل.. سألت يا سيدي.. يقولون إن السفن لن تسافر هذا اليوم.. وربما تستأنف السفر عند المساء.. هل جاء السيد أحمد؟ وكيف حصل ذلك يا سيدي؟ طبعاً لن يأتي.. لأن الضباب كثيف جداً.. أما إذا سافر سباحة.. فهذا أمر آخر.. لم يأت.. هل تقول حضر؟ الله.. الله.. يا سيدي يجب أن تسأل نفسك إذا كان حضر أو لم يحضر.. هل تقول من (أوسكيدار)؟ السفن لا تعمل هناك أيضاً.. هل تقول السفن الموجهة (بالرادار)..؟ يقولون إن الرادارات لا تعمل أيضاً يا سيدي.. لا يوجد غاز يا سيدي.. وأين الغاز؟.. وهل الرادارات تعمل إذا انقطع الغاز؟ يقول لي صديق دراسة قديم إنه لم ير ضباباً كهذا منذ خمسين عاماً.. كيف..؟ تسأل عن عمره..؟ يعني أريد أن أقول إنه صديق والدي. (تسمع صفير الباخرة.. ويخرج صوت عامل الباخرة: «الجسر») من..؟ هل تقول الصفارة..؟ من الضباب يا سيدي.. السفن تصفر على الدوام لكثافة الضباب.. هل تقول إن أحدهم قال الجسر؟ لا.. الناس يمزحون.. نعم يمزحون.. لو ترى الميناء.. إن قلت لك

خمسين ألف شخص لكن عندما تراهم تقول مائة ألف.. كأنه يوم الحشر.. الجميع ينتظرون السفن.. نعم..؟ ماذا..؟ الجو صحو عندكم.؟ ممكن يا سيدي.. وكما تعلمون.. هواء استانبول غدار يا سيدي. غداً طبعاً.. سأذهب باكراً يا سيدي. لا تصدقوا كلام أحمد يا سيدي.. لم يأت.. إذا بقي في الطرف الآخر من البوغاز.. فهذا أمر آخر. أستودعكم الله.

المرأة التي إلى اليمين ـ صدقي.. اسمعني.. حدث تصادم في القطار.. الجرحى كثيرون.. وعدد الأموات غير معروف.. وهم يحصونهم الآن. أنا شخصياً لم يحدث لي شيء. هل تسألني عن مكاني..؟ وأين سأكون يعني يا روحي.. الناس مبعثرون هنا وهناك.. البكاء والعويل في كل مكان.. (يبدأ بائع العلكة بالصراخ.. علكة.. رويال أمريكي.. علكة. بائع الجيليت يصرخ: جيليت أبو سبع ملمترات ذرية.. تحلق أقسى الذقون..) ماذا؟ ماذا تقول يا صدقي..؟ هل تسمع أصواتاً؟ ولك روحي.. الناس كلهم حيارى.. لا يدرون ماذا يفعلون.. يبكون ويبكون..

الحيرة يا صدقي.. هل تسألني عن مكان وجودي..؟ كم مرة قلت لك أنا الآن في (بنديك).. في منزل (ناظان).. هذا غير معقول.. ولكن في محطة بنديك.. هل تقول أنت أيضاً كنت في بنديك..؟ كيف..؟ آي.. هل كنت في بنديك؟.. ماذا..؟ تصادم..؟ هل تسأل في أي قطار..؟ قطار أي ساعة..؟ ولك روحي أنا ركبت قطار الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً.. آ آ آ.. ماذا..؟ أنت أيضاً كنت في نفس القطار..؟ تقول لم يحصل شيء لقطاركم، أليس كذلك؟ إذن كنت في قطار آخر.. الله.. الله.. ربما يقوم قطاران في نفس الساعة.. أحدهما اصطدم والآخر مر بقربه دون أن يصيبه شيء. تقول إن السكة واحدة؟ وماذا يعني..؟ ألا يستطيع قطاران أن يسيرا في خط واحد..؟ ماذا..؟ كيف..؟ إذن أنا أكذب.. هكذا

إذن..؟ ألا تصدقني..؟ كذاب.. واطي.. رذيل.. وتقول كنت في بنديك.. أنت كذاب لا تخجل.

فُتح باب الميناء.. دخلتُ السفينة ولم أستطع سماع بقية المكالمات المسلية.. إن كان عندكم متسع من الوقت ولا تملكون المال.. اذهبوا إلى ميناء (قاضي كوي) واستمعوا إلى تلك المكالمات.. مادامت الهواتف في العراء.. سيبقى هواء استانبول مخادعاً إلى ما شاء الله!!

□ □ □

- ١٧ -

مكان الطاولة

ليست دائرة حكومية أو مشغلاً خاصاً.. وليست هيئة أو مؤسسة.. بل بين بين.. وهذا هو السيئ في الأمر. فهذا المشغل حوى كل الصفات الرديئة التي تتميز بها دوائر الدولة والمؤسسات الخاصة.. دون أن تجد نقطة إيجابية واحدة.

غرفة واسعة.. قطعت نصفين بحاجز زجاجي.. يجلس المدير في القسم الداخلي.. وفي القسم الخارجي ست موظفات.

الموظفات الست يمضين أيامهن بالتسلية والمرح.. ويبقين هناك.. بين الثلاث والخمس ساعات.. نصف هذا الوقت يمضي بالثرثرة والكلام والنصف الآخر بقراءة الطالع؛ إما بالفنجان أو بالورق، أو على الكف.. وكلهن يجدن قراءة الطالع أو الخط. ولو كان هذا من المهن الحرة لأصبحن أثرياء في وقت قصير.. لكنهن مازلن هاويات في هذا المجال.. وما عدا ذلك، يتحدثن عن الأفلام المعروضة في صالات السينما، أو في القال والقيل.. هذه كذا وتلك...

والمدير القابع في القسم الداخلي من الغرفة، أكثر ما يستهويه القال والقيل.. ويجد فيه الوسيلة الوحيدة للتخفيف من حدة الضجيج حيث تنتقل الأحاديث إلى الهمس.. من أذن إلى أذن.. وعندها أيضاً يتمكن القارئ من استيعاب ما يقرؤه.. وتتجه أسماعه وأفكاره إلى ما يكتبه.

وكثيراً ما تدور الأحاديث عن الأزياء والثياب الفاخرة.. وما تبقى من

الوقت تستهلكه عمليات المكياج.. حتى يحين المساء موعد الانصراف.

كل صباح يقلن لبعضهن:

ـ أووف.. آمان.. الساعات كأنها متوقفة عن الحركة.

وفي كل مساء:

ـ الأيام تمضي مسرعة أيتها الأخوات.

وهل يمكن تسمية ما يعملنه يوم عمل..؟!

حسن.. أما من عمل يمكن لهؤلاء النسوة القيام به؟ إذا كنتم لا تضعون الأمور التي ذكرناها في مجال العمل.. فللذكرى نقول إنهن كن يقمن ببعض الأعمال بين الحين والآخر.. هناك بعض من نسميهم (أصحاب المصالح).. هؤلاء النسوة يحوِّلن أصحاب المصالح إلى معارضين للحكومة.. نعم.. نعم.. يجعلن منهم معارضين للحكومة. لو استلم الحكم أفضل وأحسن وأقوى حزب في البلاد، وأنجز أفضل الأعمال وأكثر المشاريع إبان حكمه.. وتيسر العمل لجميع المواطنين، وأصبحوا أرباب المصالح.. واقتضت الظروف أن يمروا وينهوا أعمالهم عند هؤلاء النسوة الست اللواتي لا يعملن.. فتتأخر مشاريع الحزب كلها، وتضيع إيجابياته في طرفة عين.. ويتحول الناس إلى معارضين لحكم هذا الحزب.

وما على أحزاب المعارضة قبل الانتخابات سوى أن يقوموا بعمل واحد.. وهو إحالة معاملات المواطنين إلى هؤلاء الموظفات.. وبعدها يوجهونهم إلى صناديق الاقتراع.. عندها لن تجد شخصاً واحداً يعطي صوته للحزب الحاكم.. هؤلاء الموظفات الست لهن حظوة كبرى لدى المسؤولين البارزين في الحزب الحاكم.

بما أن هؤلاء الموظفات الست يشغلن الغرفة وحدهن.. فالموظفة السابعة تجلس في غرفة أخرى.. والسيد الثامن في غيرها.. والتاسع.. والبواب العاشر.. والخادم الحادي عشر في مكان آخر.

أليسوا كلهم سواء..؟ أليسوا كلهم بشراً؟ لكن الحظ خانهم لأن الموظفات الست صرن موضوع هذه القصة.

قرأ المدير جملة في أحد التقارير الموجودة أمامه خمس مرات متتالية ولم يستطع فهمها جراء الضجة والقهقهات المنبعثة من الغرفة المجاورة. وانتظر بعض الوقت حتى يعم الهدوء عندما يبدأن بالقال والقيل.. ولأنهن تعمدن مشاكسته.. مرَّ النهار كله دون تحقيق ما أراد.. قال المدير لإحداهن:

ـ منذ خمس عشرة يوماً.. أعطيتك ورقة فيها (....).. هل أنجزتها؟

كانت إحداهن تحاول إشعال سيجارتها فاستهلكت لذلك ثلاثة أعواد ثقاب.. وقالت بعد ذلك متسائلة:

ـ هل كنت مضطراً لهذه الورقة كثيراً؟

هزَّ المدير رأسه والتفت إلى الثانية:

ـ وأنت كنت تبحثين عن رقم.. هل وجدته؟

قالت الموظفة، وفي إحدى يديها مرآتها وفي الأخرى قلم الكحل:

ـ وأي رقم كان هذا..؟ هل هو رقم هاتف؟

قال المدير:

ـ لا.. رقم حذاء.

عندها انفجرت الموظفات كلهن من الضحك وبقهقهات عالية احمر لها وجه المدير خجلاً.

بعد قليل.. دخلت إحداهن غرفة المدير، وتعد أكثرهن نشاطاً.. وقدمت له ورقة.. فقرأها: «في معروض المواطن إليشيك حسن مارتان.. هذا المعروض مخالف للمادة (...) من القانون.. مع تحياتي».

قال المدير:

ـ من هو (إليشيك)؟ حسن مارتان أليس كذلك؟ ما هذه التركية البشعة؟

غضبت الموظفة النشيطة وقالت:

ـ أرجوك يا سيادة المدير.. لن أتعلم اللغة التركية منك.

وخرجت غاضبة، وسمعت أصوات كعب حذائها الرفيع والقاسي وهو ينزل بشدة على أرض الغرفة الملبسة بالبلاط.. وعندما جلست مكانها كانت تقول لنفسها:

ـ الذنب ذنبي.. لأنني أحضرت له الورقة.

لم يجد المدير طريقة لتسيير عمله الإداري سوى تطبيق النظام.. ولذلك كان عليه أن يجرب عضلاته وقوته بواحدة من هؤلاء الموظفات الست. ولكن أية واحدة منهن ستكون الأولى..؟ كلهن سواء.. يكفي أن يفهمن بأن المدير رجل بكل معنى الكلمة، وأنه يطبق الأنظمة كما يريد. ومثل واحد سيكون درساً للجميع. وبذلك ينهي حس اللامسؤولية عندهن. وبما أن النسوة الثلاث.. كلهن قويات.. وعندهن (واسطة).. لم يجد الفرق بينهن أبداً.. فاستعمل أبسط شيء من سلطته فأمر الخادم أن يبعد طاولة إحداهن عن النافذة مترين إلى شمال الباب.

في اليوم التالي غضبت إحداهن عندما وجدت طاولتها مبعدة عن النافذة إلى مكان آخر.. بكت بعض الشيء.. ولم تكن المسافة بين مكان الطاولة القديم والحديث سوى مترين.. في ذلك اليوم بقي جو المكتب مشحوناً.. فلم يصِّرن بالفنجان ولا بالكف.. ولم تتصاعد القهقهات كما في كل يوم.. فالهوانم غاضبات جداً.. والموظفة التي تبدَّل مكان طاولتها اعتبرت ذلك مسألة شرف وكرامة.. وشعرت أنها مستهدفة.. فلماذا مكان طاولتها شخصياً؟؟

ذهبت إلى واسطتها وشرحت له الأمر، وقالت:

ـ لن أعمل على تلك الطاولة مهما كلف الأمر.

فقال (من يدعمها) كي لا يثير مشكلة ما:

ـ لا تعملي.. وهل من أحد يجبرك على العمل..؟ اجلسي فقط.

ـ لا.. حتى الجلوس هنا لا أرضاه.. لست من هواة أو محبي الجلوس على الطاولات.. ولماذا غيَّر مكان طاولتي فقط دون الجميع؟ المسألة جدية ولها خصوصيتها..

سأل المسؤول الأعلى المدير عن سبب ذلك. قال المدير:

ـ إذا قمت بتغيير طاولة.. تطلب مني سبب ذلك؟!

ـ رجاء أعد الطاولة إلى مكانها السابق.

سحبت الطاولة مترين إلى اليمين...وأعيدت إلى مكانها القديم.

هذه المرة.. ذهب المدير إلى المسؤول الأعلى وشرح له الأمر قائلاً:

ـ إذا لم يكن من حقي تغيير مكان طاولة في دائرتي.. فأية سلطة بقيت لهذه الإدارة؟ لا أستطيع العمل وفق هذه الأوضاع.

فقال المسؤول الثاني:

ـ اسحب الطاولة مترين.. وثبت سلطتك جيداً في الدائرة.

سحبت الطاولة مترين إلى الناحية الأخرى. وعندما رأت الموظفة ذلك.. خرجت من الغرفة على الفور.. وكما هو معلوم، الناس مقامات، والمسؤولية درجات، فوجدت مسؤولاً أكبر من المسؤول الذي ذهب إليه المدير.. وشرحت له تظلمها.. فمد يده إلى الهاتف واتصل بالمدير الأعلى قائلاً:

ـ لتعد طاولة هذه السيدة إلى مكانها القديم فوراً.

ـ على الرأس والعين.

اتصل المسؤول الذي أخذ الأمر عن طريق الهاتف مع المدير شخصياً:

ـ أعد الطاولة إلى مكانها القديم.

أعيدت الطاولة مرة أخرى خطوتين نحو الخلف. غضب المدير من هذا الأمر كثيراً ولجأ إلى مسؤول أعلى:

ـ يا سيدي أنا أعمل وسط أجواء كهذه.. هل أنا مدير حقيقي أم طرطور؟

أعطيت الأوامر.. وزحزحت الطاولة خطوتين إلى الأمام.

عندما جاءت الموظفة صباح اليوم التالي إلى غرفتها ورأت مكان طاولتها.. عادت لتوها.. وخرجت من الغرفة.. وركبت القطار في نفس ذلك اليوم وسافرت إلى العاصمة.. وشرحت الأمر لأحد المسؤولين الكبار.. الظلم الذي لحق بها عن طريق بعض المعارف (مسؤول.. مسؤول.. مسؤول) فصدر الأمر مباشرة: «الطاولة ستعود إلى مكانها القديم».

وسافر المدير إلى العاصمة.. وقال:

ـ إذا كنت عاجزاً عن تسيير أمور دائرتي وتوجيه موظفيها.. فكيف أستطيع تطبيق النظام فيها؟

سحبت طاولة الموظفة من جديد مترين نحو الأمام.

رفضت الموظفة الوضع وسافرت مرة أخرى إلى العاصمة. وبما أن البشر، كما قلنا، مقامات، والمسؤولية درجات.. هنالك القوي والأقوى. كانت الموظفة كلما قصدت درجة أعلى.. تبكي ثم تضحك.. تبكي ثم تضحك.

وجاءت الأوامر من الدرجة الأعلى.. وسحبت الطاولة خطوتين نحو الخلف.. أما المدير.. فلجأ إلى مسؤول أعلى وقال في نفسه:

ـ إما أنا وإما هي..

قال المدير.. للمدير العام: كيت وكيت.. إما أنا وإما هي.. فدائرتي التي أشرح وضعها نشيطة جداً، وأعمالها لا تتوقف مطلقاً. يكفي هذه الدائرة أن فيها طاولة تتحرك مترين إلى الأمام أو إلى الخلف يومياً.. أما الدوائر الأخرى فلا يوجد فيها مثل هذا التقدم.. الطاولات على الدوام ثابتة.

هل تحبون أن تسمعوا نهاية هذه الطاولة..؟

نعم، في النهاية تجمعت كل الشكاوى لدى المسؤول الأعلى.. فالسيدة والمدير لهما من يدعمهما على أعلى المستويات.. المدير يريد أن يطبق النظام والطاعة في دائرته.. والموظف يريد حقه. كان المسؤول الأعلى إدارياً قديراً.. يتصرف بوعي وحكمة.. فأمر بما يلي:

ـ لن تتزحزح الطاولة لا مترين إلى الأمام ولا مترين إلى الخلف.. بل بين بين.. فيتبدل مكانها متراً واحداً فقط.. أي في الوسط.

بقيت الطاولة وسط المترين.

قال المدير:

ـ أنا لا أعمل في دائرة لا تطبق فيها تعليماتي.

وقالت الموظفة:

ـ أنا لا أستطيع أن أتحمل هذا الظلم.. لن أعمل بعد الآن.

ترك الاثنان الدائرة وبقيا دون عمل يحضران فقط في نهاية كل شهر ويقبضان رواتبهما.. وما حصل هو الخير نفسه.. فالعمل الآن ينجز بشكل ممتاز «وعقبال الدوائر الأخرى»! ولو أن جميع الموظفين يأتون إلى دوائرهم فقط لقبض رواتبهم لكان الأمر أفضل مما عليه الآن. على الأقل لا يبقى موظف يعطل مصالح المواطنين وأعمالهم.

الدائرة تسير على ما يرام.. فلا مدير متسلط يفرض سيطرته عليها ويغير أماكن الطاولات والكراسي.. ولا يحصل خلاف فيها.. فالقهوة والشاي والكازوز على غاية مايرام.. وقراءة الكف والفنجان.. وشغل السنارة والصوف.. والقال والقيل.. والزيارات المتبادلة.. كل ذلك سيعلي من شأن الوطن ويخدم المواطنين.. الله لا يرينا مديراً يفسد علينا هذه الحياة الجميلة!

□ □ □

- ١٨ -

محمد آغا «الحممجي».. صاحب الحمّام

لست أدري كيف قمت بذلك العمل.. وحتى الآن عندما أتذكره.. أخجل من نفسي.. وأضحك عليها.

كان ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً. كنا في مدرسة داخلية.. لم أعد أذكر ماذا تعلمنا هناك أو ماذا درسنا.. لأنه لم يكن لدينا الوقت للدراسة من كثرة الضحك والتسلية.

فقبل أن يبزغ الفجر.. توقظك ضربة تنزل على جنبك.. تأتيك إما من كاني الرذيل، أو شوكت الوسخ، أو من نجمي البطاطا.. فتتحرك سريعاً والنعاس يغلب على عينيك..

- شو في ولك؟

- قم وانظر.. إنها حلوى المضخة.

قصعة كبيرة ملأى بتلك الحلوى.. أو بحلوى (إصبع الوزير).. كل يا محمد.. كل. في صفنا أربعة أو خمسة طلاب يقضون معظم حصصهم الدراسية في المطبخ.

كان على الطلاب أن يناوبوا في المطعم.. ربما فعلوا ذلك كي ينمّوا خبراتنا في الحياة.. ولكن نوبة المطبخ كانت شبه محصورة بثلاثة أو أربعة طلاب بيننا.. كانوا يحتكرون المناوبة على الدوام في المطبخ.. إما بالتي هي أحسن.. أو بالقوة. فإن لم يستطيعوا المناوبة بالقوة كانوا يقولون:

- بعنا دورك في مناوبة المطبخ.

وبيع مناوبة المطبخ يعني الحصول على علبة كبيرة من الحلوى. وبخبرتهم الطويلة بمداخل ومخارج هذا الأمر، كانوا يشترون المناوبة من باقي الطلبة.

على الدوام تأتيني القراميش المحمرة والحلوى. لماذا..؟ لأنني كنت أمهر وأذكى طالب في الصف. يعني كنت أعطيهم (الرشيتات) وآكل الحلوى.

هذه الحلويات.. ومعها المأكولات اللحية الأخرى.. لا نأكلها في المطعم.. بل في مهجع النوم.. قبل أن يستيقظ أحد ويرانا. والحقيقة كنا نكتشف حقائق الحياة وتجاربها من خلال مناوبتنا في المطبخ.. يعني.. معرفة كيف تؤكل حقوق الآخرين.

كنا نستلقي على أسرّتنا ومعداتنا ملأى بالطعام.. في البداية نسمع صوت بوق الحمام.. وبعد ساعة بوق الاستيقاظ الذي طالما أحببت صوته واستعذبته «دادات.. داتا ا ا ا.. دادات.. داداتا ا ا ا ا.. تي تا تا ا ا ا». أفدي بنفسي بوق القصعة.. ليتركوني نائماً على معزوفة بوق الاستيقاظ.

وأكبر همومنا كان الحمّام.. ولا ندري لماذا كنا ندخل الحمام.. هل لنغتسل جيداً..؟ أم أنه من صلب عملنا..؟ لست أدري.. ولكنه كان أجمل تسلية لنا. حتى الاستحمام كان بالدور.. مرة في الأسبوع.. ودخوله أصعب كثيراً من الانتقال إلى الصف الأعلى.. ننجح بالرشيتات والنقل وغيرها.. ولكن الحمام كان أصعب بكثير من النجاح. كنا نشكل عصابة الحمام في المساء.. الأقوياء يسرعون للسيطرة على الزوايا الحساسة في الحمام والتي تعتبر أصعب شيء فيه.. قبل أن يحتلها الآخرون. بعد ذلك البشكير.. ثم المنشفة. أما الضعاف وقصيرو القامة فيسرعون وسط الزحام لتناول الطاسات.

تتحرك عصابة كل مجموعة ابتداء من منتصف الليل.. كي تسيطر

على الزوايا.. والمناوبة على باب الحمام. والعامل محمد آغا عجوز ناهز السبعين من عمره منذ وقت طويل.. ذو لحية بيضاء.. لم يعمل في حياته سوى (حممجياً) وفي حمام مدرستنا فقط.. ذهب إلى الجيش من قريته.. وأصبح حممجياً بعد ذلك.. وبقي حتى اليوم. وأغلب الطلاب الذين عايشوه في مدرستنا وتخرجوا منها.. إما تقاعدوا، أو أصبحوا (جنرالات). وإذا زاروا المدرسة لسبب ما.. لا يخرجون منها قبل أن يسلموا على محمد آغا الحممجي.. وهو لا يعرفهم. وينظر إليهم وكأنهم شخص واحد.

أما باب الحمّام.. فيشبه باب القلعة، من الخشب السميك.. بحيث لو هاجمه جيش برؤوس الأفاعي (أي الأعمدة التي تدك بواسطتها أبواب القلاع) لا يستطيعون فتحه.. والطلاب الذين يأتون إلى الحمام يتشاجرون مع محمد آغا الحممجي.. كل ليلة... وأصبح هذا الشجار أو الجدل عادة متبعة في المدرسة.. يبدأ الطلاب بالضرب على باب الحمام منذ منتصف الليل.. حتى يفتح الباب.. بالحجارة والعصي والقبضات والرفس والركلات. أما محمد آغا فقد اعتاد هذه الضجة على مدى كل هذه السنين. خمسون عاماً أو ستون.. ولا أحد يعرف إن كان ينام أو يبقى مستيقظاً أثناء صدور هذه الضجة. ربما اعتاد ذلك.. ينام ويغفو متى يشاء.. يملك ساعة منبه.. تبدأ بالرنين بتمام الساعة الرابعة والنصف فجر كل يوم.. ويسمعه الجميع.. وتبدأ الحركة والازدحام أمام الباب.. حيث يستيقظ محمد آغا ويتوضأ ويصلي الفجر ويبدأ بالدعاء. في هذه الأثناء يبدأ الضرب على الباب.. وتبدأ الشتائم والكفر تنصب على المسكين محمد آغا.. أما هو يبقى كمن لا يسمع شيئاً من ذلك ولا يهتم.

لا يفتح باب الحمام إلا في الوقت المحدد.. ولكن كيف يفتحه؟ لأنه ليس بالأمر اليسير أبداً.. إذا ما حاول ذلك غريب يمكن أن يسحقه الباب

سحقاً.. ولا يبقى منه قطعة.. معاذ الله.. وما أن يفتح الباب حتى يتدافع نحو الداخل سيل هائل من البشر.

دعائم طويلة وغليظة من الخشب القاسي تسند الباب من الداخل، علق في طرفها حبل قوي يستعين به محمد آغا عند سحب الدعائم بعد أن يبتعد عن الباب مسافة خمسة عشر متراً تقريباً.. عندها يتحرر الخشب من المماسك الحديدية ويُفتح دفعة واحدة. وهنا تقوم القيامة.. الصراعات والشتائم.. بعضهم يهجم باتجاه الزوايا، والبعض الآخر على الطاسات. وآخرون على المناشف والبشاكير والقباقيب.. ثم يبدأ التباهي: أنا الذي أخذت وأنت الذي سيطرت. وكثيراً ما تمزقت المناشف بسبب الخلاف عليها.. كل يشدها صوبه.. فيسقط البعض على الأرض فتنكسر الأيدي والأرجل وتتناثر القباقيب هنا وهناك.. فالصابون كان أيضاً يلعب لعبته.

إذا انتهى الأمر عند هذا الحد يكون خيراً.. ولكن الأخطر عندما تعجز مجموعة ما عن السيطرة على زاوية ما.. ويعني ذلك اشتعال حرب ضروس بين المجموعات.. فيبدأ الضرب دون وعي.. والنتيجة معروفة.

كنا في شهر رمضان.. والعميد رجب، مديرنا الداخلي، كنا نخافه كثيراً ونرتجف هلعاً لهيبته. وليس من يرى وجهه فقط، بل من يسمع صوته أيضاً، يبحث عن جحر للفئران يختبئ فيه خوفاً منه.. ولا أدري لماذا كنا نخاف السيد رجب هذا؟! لم يصرخ في وجوهنا ولم يضربنا أو يشتمنا.. ومع هذا كنا نخاف منه. هل قلت كان يضربنا؟ بالطبع.. كان الضرب مباحاً آنذاك.. أما أن تكون شاباً في الثامنة عشرة من عمرك.. ذلك يعني أن في جسدك قوة ثمانية عشر حصاناً. هذا لا ينفع.. ولا مراعاة لطول أو لعرض أو لسن.. لا يقولون هؤلاء شباب لهم كرامتهم أبداً.. فيضربون ويضربون.

السيد رجب لم يكن يضربنا.. حتى أنه لم ينتهرنا أو يوجه إلينا كلمة نابية.. ولكن وجهه لا يضحك أبداً.. ويبقى على الدوام مقطب الحاجبين.

كنا في رمضان كما قلت.. والعميد رجب مدير الداخلية.. يدخل الحمام بعد سحور كل ليلة. كانت قرقعة قبقاب السيد رجب تسمع في الممشى.. كان يسير.. وعلى جسمه سروال داخلي، وعلى ظهره معطفه.

ذات ليلة.. كان (كاني الرذيل) مناوباً في المطبخ.. والتقى السيد رجب وجهاً لوجه وهو يحمل قصعة مليئة بالحلويات.. ويبدو أن كاني الرذيل سلَّم القصعة للسيد رجب وأدار ظهره واختفى على الفور. فدخل السيد رجب مهجعنا.. وأيقظنا على صوته وهو يقول بلهجته المحلية:

ـ انظر هذا الأفندي.. يسرق القصعة ويهرب ليندس في السرير.

فساد المهجع صمت القبور، ولم يتجاسر أحد على التفوه بكلمة واحدة.

* * *

في أحد الأيام كلفتني عصابة الحمام:

ـ أنت الذي ستحتل الزاوية هذه الليلة.

أصابتني الحيرة. أنى لي هذا..وأنا ضعيف البنية وقصير القامة..؟ يطحنونني كالتين اليابس.. وإذا لم أحتل زاوية سيقتلونني. فكرت طويلاً.. ماذا عليَّ أن أفعل..؟ تذكرت حيلة يمكنها إنقاذي.. كنت أقلد السيد رجب وهو يحمل القصعة في مهجعنا بلغته المحلية:

ـ انظر هذا الأفندي.. يسرق القصعة في هذا الوقت المتأخر من الليل ويختبئ في السرير.

قلت لعصابتنا:

ـ متى تريدون الذهاب إلى الحمام.. دون أن نضطر للانتظار على الباب.

قالوا:

ـ وهل يفتح محمد آغا الباب؟

ـ أنا أجعله يفتح.

في تاريخ الحمام كله لم يحدث شيء كهذا.. اتجهت صوب الحمام.. قائلاً في نفسي: في كل الأحوال سآكل قتلة.. إذا انطلت حيلتي نجحت.. وإذا لم أنجح فالقتلة حاصلة لا محالة. كانت العصابة تسير خلفي.. وهناك ساعتان على موعد فتح باب الحمام.. ضربت الباب.. مثل السيد رجب وصرخت مقلداً صوته:

ـ محمد آغا ا ا ا ا.. محمد آغا.. أنا مدير الداخلية.. افتح الباب.

وإذا بالباب يفتح.. دخلنا قبل أن يوصد محمد آغا باب الحمام في وجوهنا.. ولن يستطيع إخراجنا أي مخلوق على الإطلاق.

انتشرت هذه الحيلة في أوساط الطلبة.. وبعدها استطاع بعض الطلاب أن يخدعوا محمد آغا بهذه الوسيلة ودخلوا الحمام.

بعد أن انطلت الحيلة عدة مرات على محمد آغا.. فتح عينيه جيداً وأخذ حذره.

في ليلة أخرى.. وقفنا أمام باب الحمام أيضاً وصرت أصرخ:

ـ محمد آغا ا ا ا ا.. أنا مدير الداخلية.. فجأة سمعنا صوت قبقاب السيد رجب.. فهربنا وانزوى كل منا في زاوية.. كان صوت القبقاب يقترب شيئاً فشيئاً.. وإذا السيد رجب.. بسرواله الداخلي الطويل وعلى ظهره معطفه يصل الباب، فضربه وصرخ:

ـ محمد آغا..

ولكن الباب لم يفتح.. قرعه ثانية وصرخ:

ـ محمد آغا ا ا ا.. أنا مدير الداخلية.. يا محمد آغا.

لا صوت ولا حركة:

ـ محمد آغا أنا لست طالباً.. أنا مدير الداخلية.. محمد آغا..

انطلت الحيلة على محمد آغا عدة مرات.. من غير المعقول أن تنطلي عليه اليوم. غضب السيد رجب كثيراً.. وظل يصرخ ويصرخ:

ـ محمد آغا.. والله وبالله لست طالباً.. أقسم لك بأغلظ الإيمان لست طالباً.. أنا مدير الداخلية يا محمد آغا.

وما من مجيب. ويزداد غضب السيد رجب ويتعالى صراخه أكثر فأكثر.. وعندما لم ينفعه الغضب والصراخ.. خفف من حدته وهو يقول:

ـ محمد آغا.. افتح الباب.. يا محمد آغا.. والله وبالله لست طالباً.. أنا مدير الداخلية.. افتح الباب يا محمد آغا.

لا الصراخ ولا الضربات أفادته بشيء.. عاد إلى الهدوء وقال:

ـ محمد آغا.. ضع عينك على الثقب الموجود وانظر «النجوم على كتفي» (الرتبة العسكرية).. أنا مدير الداخلية يا محمد آغا.. افتح الباب.

انتظر بعض الوقت.. وصرخ بعد أن عيل صبره تماماً:

ـ محمد آغا.. منذ صباح الغد.. أنت مطرود.. اجمع أغراضك واذهب إلى بيتك.. أنت مطرود.

قال ذلك وقفل راجعاً إلى مكتبه.

صبيحة اليوم التالي لم يسحب محمد آغا الدعائم من خلف الباب، ولم يطرد من الحمام.

لقد اعتادت ألسنتنا تقليد كلمات السيد رجب وهو يقول: «محمد

آغا ضع عينك على ثقب الباب وانظر».. وكنا نذهب إلى الحمام.. لا لنجعله يفتح الباب.. بل لنضحك.

لن أنسى تلك الليلة.. كانت ليلة (عرفة) أو وقفة العيد.. وكنا مستندين إلى الباب.. وأنا أصرخ من خلال الثقب:

ـ أنا مدير الداخلية يا محمد آغا..

فجأة توقفت الضحكات من خلفي.. أدرت رأسي.. وإذ بي أمام السيد رجب وجهاً لوجه.. ولا أثر لزملائي.. فشعرت كأن ماءً فعلياً صبَّ على رأسي.. وشيئاً ساخناً بلّل سروالي. كان باستطاعته أن يمرغ الأرض بجثتي.. حاولت جاهداً أن أفتح فمي وأعتذر.. لكن لساني عُقل من شدة الخوف.. قال السيد رجب مبتسماً:

ـ لا يفتح الباب يا بني لا يفتحه.. هذا الرجل لم يكن ليفتح الباب منذ ثلاثين عاماً.. حينما كنت طالباً مثلك هنا.. لا لمدير الداخلية، حتى ولا للمدير العام.. لا يفتح إلا إذا كانت لديه رغبة في ذلك.

لم يضربني السيد رجب ولو ضربة خفيفة.. ولكن كنا نخاف منه كثيراً.. إن كان حياً.. فلترن أذنه.. وإن كان ميتاً رحمة الله عليه.

□ □ □

ـ ١٩ ـ

اطلع برى ولك

لن أذكر اسمها.. أي اسم المنطقة التي جرت فيها القصة. وما شأني أنا؟ فربما تضايق البعض من كلامي، أو تأثر به البعض الآخر. بلدة شرقية.. رجالها اشتهروا برجولتهم وقوتهم. إن بلغ صبيهم السابعة من عمره، يضع سكيناً بين طيات زناره أو في حزامه. أما إذا بلغ الحادية عشرة.. فلا بد من وجود مسدس حقيقي على جنبه، لا لعبة أطفال، بل مسدس حقيقي كبير.. غراف.. غراف.. غراف.. فالإنسان يرتعب لمجرد رؤيته هذه الأسلحة.. «هنا مرقد القبضايات».. وبما أن أهالي البلدة ذكروا لي كل ذلك.. كنت أرتعد خوفاً عندما أسمع سعلة تصدر شخص ما في ذلك الشارع أو غيره. إنهم يتفاخرون بثلاثة أشياء.. (شارع الجمهورية، وبار آبو، وأموال القطن) وأصبحت بلدهم تعني هذه الأشياء الثلاثة.

ذات يوم كنت جالساً في مقهى يطل على شارع الجمهورية أنتظر صديقاً. ولا بدَّ لك عندما تنظر إلى الجالسين على الطاولات إلا أن تشعر بالخوف.. كلهم يشبهون الهياكل الشمعية لبعض الجنود القدامى التي تعرض في المتاحف.. وكأن هذه الهياكل تحركت من أماكنها وجاءت إلى هنا. وما حيَّرني وزاد خوفي، تلك الأشكال العجيبة من الشوارب.. منها الطويل.. والخيطي الذي يشبه البوري.. وكلها مفتولة ومدببة يقف عليها العصفور. كانوا يسعلون بين حين وآخر.. ومع كل سعلة كان قلبي

يهبط إلى أسفل.. وكذلك الكؤوس والمنافض الموجودة على الطاولات كانت ترقص من شدة السعال.

الجلوس بين هؤلاء الرجال يحتاج إلى قلب قوي جداً.. كانوا يخرجون علب السجائر من أحزمتهم فتخالهم يخرجون مسدساتهم.. وكذلك عندما يخرجون ساعاتهم الفضية أيضاً.

أرسل من هؤلاء القبضايات مجموعة إلى أوروبة وأمريكا وآسيا وأفريقية.. يعني إلى القارات الخمس كي يفتحوها.

أربعة من هؤلاء كانوا على طاولة مجاورة يلعبون لعبة لا أعرفها. وكان الجو ملبداً جداً.. وكانوا متوترين.. وشعرت أنا أن شيئاً غير طبيعي سيحدث بعد قليل. كانوا ينظرون إلى وجوه بعضهم نظرات يصعب وصفها.. هذه النظرات، لو اصطدمت بشخص غريب لجمد في مكانه تماماً.. لا يتحدثون كثيراً.. ولا يثرثرون. هذا الصمت المطبق يولّد في الإنسان الخوف والرهبة.

لا عمل لي هنا لو لم أكن أنتظر أحداً.

قذف أحدهم الأوراق التي في يده إلى الأرض وصرخ:

ـ لن ألعب..

وصل قلبي إلى فمي من شدة الخوف.. نظر الآخر إلى الشخص الذي أمامه من تحت حواجبه شذراً.. ورمى الأوراق أرضاً وضرب الطاولة بقبضته وقال:

ـ هل تظن أنك خدعتني..؟ (طبعاً بلغة محلية/ المترجم).

قلت في نفسي: «أي واه.. الله يستر.. ستكون الواقعة مخيفة».

ـ ولك من أنت؟ كم ليرة تساوي يعني؟

ـ أتقول لي هذا الكلام؟ الكلام موجه لي ها؟ قلها ثانية حتى أسمعك.

ـ واي.. انظر إلى هذا (الملعون).. ولك (كَوات).

كان الشجار يشتد، والأصوات تعلو باطراد.

ـ أنت تغش الورق..؟

ـ من..؟ أنا..؟ أنت الذي تحتال.. أنت لست سوى حرمة.

ـ ماذا قلت؟ ماذا قلت؟ أعدها مرة ثانية.. كل ما قلته هو فيك ومن صفاتك.

دسَّ أحدهم يده في زناره، والآخر في جيبه الخلفي.. ولمعت السكاكين والمسدسات.. وقفا على أرجلهما.

وصرت أبحث عن طريقة للخلاص من هذه الورطة.. وإذا بالرجل الأسمر يقول:

ـ هل عطشت لروحك أم لدمك؟

قال الآخر متحديا وداعياً إياه إلى المصارعة:

ـ الرجل يُعرف في الساحة.

كانت أسنانهما تلمع كبلطة صقلت حديثاً.. فلا حاجة لمسدس أو لسكين.. يستطيعان أن يأكلا بعضهما أكلاً.

ـ إن كنت رجلاً.. اخرج من المقهى.

ـ اطلع ولك..

لما سمعت هذا بدأت رجلاي ترتجفان، وازداد خفقان قلبي.. فالشجار لا عودة عنه أبداً. أقسم أن الاثنين سيقضيان على بعضهما. أليس حراماً أن يقتتل هذان البطلان؟ سيمزقهما الرصاص، وسيغسلان الأرض بدمائهما.

لكن أتدرون ما الذي حيَّرني وقلب تفكيري؟ إنه خروج الاثنين من المقهى دون أن يتحرك أي من الموجودين فيه.. وكأنهم لم يروا ولم

يسمعوا شيئاً.. وظلوا يسعلون.. ويفتلون شواربهم على الدوام. ماذا يحدث لو تحركتُ وحاولت أن أفصل بينهما..؟ هل أستطيع يا ترى؟ بالتأكيد أضيع مثل شربة ماء. وعادة في هذه الأمكنة لا يتدخل أحد بين المتصارعين.. وكما قال المثل: «الذي يموت يموت والذي يبقى هو لنا».

لم يبق في وجهي قطرة دم واحدة.. وإذا بصوت يأتيني عن اليمين:

ـ ماذا جرى لك يا ولدي؟ لماذا أنت حائر هكذا؟ لماذا اصفرَّ وجهك؟

نظرت إلى العجوز.. إنه لا يشبه الموجودين في المقهى.. حتماً ليس من هذا البلد. أجبته:

ـ سيقتلان بعضهما وما من إنسان يفصل بينهما.. هل يعقل هذا؟

ضحك وقال:

ـ هل جئت حديثاً إلى هذا البلد؟

ـ نعم أنا غريب هنا.

ـ إذن اخرج خلفهما وانظر ماذا سيفعلان.

ـ ولنفرض أنهم آذوني.

ـ لا تخف لن يمسوك بسوء.

عندما خرجت كانا يتحدثان في الحديقة وكأنهما صديقان. اقتربت منهما وأصغيت لحديثهما:

ـ ولك أنت قلت لي ذاك الكلام؟

ـ طيب.. وأنت لمن وجهت كلامك؟

ـ أنا وجهت كلامي لا على التعيين.

ـ لمن قلت ذلك؟

ـ ليس لأحد.. للرجل الذي كان أمامنا.

ـ انظر يا أخي.. انظر إلى أين يودي الخطأ بالإنسان.. من لا شيء كاد الدم أن يسيل.

ـ ها والله.. أوشكت أن أقتل إنساناً.

ـ إنه يتلاعب بالورق يا أخي ويغش.

ـ نعم إنه يفعل ذلك.. قليل الناموس.

وضع كل منهما يده على كتف الآخر.. وسارا معاً.. عندما نظرت إليهما عبر شعاع مصباح العامود الكهربائي كان الشارع لا يتسع لخيالهما.

□ □ □

- ٢٠ -

الأشياء المكتوبة على الدفتر

الحقوقيون.. يعرفون جيداً أن في تركيا بلدتين خرّجتا منذ مئتي عام وحتى الآن مشاهير المحامين والقضاة والحكام والنواب العامين.. إحدى هاتين البلدتين على البحر الأبيض المتوسط، والأخرى على البحر الأسود.. وتخريج هاتين البلدتين الساحليتين للحقوقيين أصبحت عادة متبعة.

الحادثة التي أرويها لكم جرت في البلدة الواقعة على ساحل البحر الأسود. القاضي يونس من سكان تلك البلدة. حقوقي كأهله وأجداده الأقدمين. عمل حاكماً في مناطق عدة كثيرة من تركيا. وعندما اقترب موعد إحالته على التقاعد.. أراد أن يتم ما تبقى له من خدمته في بلدته.. بين أهله وأقربائه. ومضى عليه الآن سبع سنوات يعمل قاضياً في محكمة الجزاء في بلدته. نصف سكان البلدة هم من أقرباء القاضي يونس من قريب أو بعيد. ولكن هذا القاضي لا يفرق بين أخيه أو أبيه وبين أي غريب عندما يقف أمامه، إن كان مذنباً. خاصة أن هذه العائلة تعرف منذ أمد بعيد بالاستقامة.

وللقاضي يونس ابن عم عم أبيه.. شاب يدعى (كوموش دورسوف). وهذا الشاب شقي جداً.. جعل سكان بلدته وسبعة بلدان أُخَر يصرخون ويهتفون: «مدد يا الله». كان بلاء حقيقياً للمنطقة بكل معنى الكلمة.. لقبه سكان بلدته حسب لهجتهم المحلية «كوموش دروسين» (ملاحظة: في هذه القصة يتعرض الكاتب إلى لهجة سكان البحر الأسود المشهورين جداً

في لهجتهم وطريقة تحدثهم المناقض بعض الشيء لباقي اللهجات في تركيا. فمثلاً كلمة /gumus - فضة../ اسم الشاب /Gumus Dursun/ .. جماعة البحر الأسود يسمونه /Kumis/ و/Dusun/ تكون /Dursin/ المترجم).

و(كوموش دورسون) هذا أحيل أمام القاضي يونس خلال خدمته البالغة سبعة أعوام أكثر من سبعين مرة. وجرائمه كلها متعلقة باختطاف (تشريد) النساء والفتيات.. والعراك من أجلهن. لا يعرف الجمود مطلقاً.. إنه حشري بكل معنى الكلمة.

وعندما جاء القاضي يونس كرئيس لمحكمة الجزاء في البلدة لم يسعد مجيئه ذلك الشاب الشاذ. فلو جاء مكانه قاض غريب لجادله كوموش دورسون كيفما يريد.. ودافع عن نفسه على طريقته.. ولكنه أمام القاضي يونس يتجمد.. ويحترمه.. لأنه قريبه ومن عائلته، ويناديه عمي. ومهما كانت درجة القرابة بعيدة عندهم، فاحترام الكبير في هذه البلدة لا يوصف.. ويعد والد جد جد القاضي يونس أخاً لجد جد والد كوموش دورسون.. أي أن القرابة تمتد إلى ما قبل مئات السنين.. ومع هذا فكوموش دورسون لم ينس هذه القرابة. ولذلك يخاف منه، ليس لأنه قاض، بل لأنه بمثابة عم له. إذن هو عم وقاض.. وشديد منتهى الشدة.. والحال هذه.. هل يتجاسر ويفتح فاه عندما يقف أمامه؟

والقاضي يونس.. لم تتغير طريقة حديثه أو لهجته بعد كل هذه الدراسة المتواصلة في الحقوق أو الاختصاصات الأخرى.. ظل لسانه هكذا.. بلهجة بلدته.. كباقي أبناء البلدة.. بلهجة البحر الأسود. عندما شاهد كوموش دورسون أمامه ضرب الكرسي بيديه وقال:

ـ أوي كوموش دورسين.. مرة أخرى تقف أمامي.

وعندما يقول ذلك.. تتمزق أشرعة (كوموش دورسون) وتغرق..

والموت عنده أسهل عليه من المثول أمام عمه القاضي يونس.

طبعاً.. ينكر كوموش دورسون كل الاتهامات الموجهة إليه ويقول: «إنه افتراء».

والحقيقة أن القاضي يونس.. يحب هذا الشاب كثيراً.. يحبه ولكنه لا يظهر له هذا الحب.. كما أن حبه هذا لا يقلل أبداً من العقوبة التي يستحقها. آخر مرة.. عندما مثل كوموش دورسون أمام القاضي وعاقبه بثلاثة أشهر حبس.. قال له:

- انظر إلي جيداً يا كوموش دورسين.. أتمنى ألا لا تمثل أمامي مرة أخرى.

ثم أخذه من أذنه بعد أن فركها وقال له:

- سأحرق روحك.. سأكون لك عماً كما تريد.. سأعدمك وأخلصك من نفسك. انتبه وإياك أن تكرر أعمالك.

ولكن هل يتوقف (كوموش دورسون)؟ هل الأمر في يده؟

لقد حلف اليمين المعظم أكثر من مرة أنه لن يقف مرة أخرى أمام عمه القاضي.. ولكنه عندما شاهد عائشة وحيدة في الجبل تقطع الحطب.. نسي يمينه وشماله.. ولم يستطع أن يتمالك نفسه.. فعيون (كوموش دورسون) لم تعد ترى لا القاضي، ولا العم، ولا السجن.. ولم يعد يرى شيئاً أبداً.

جريمته هذه المرة كبيرة.. لأنه خطف عائشة وهي تقطع الحطب في الجبل.. وبقي معها ثلاثة أيام بعيداً عن أعين الناس. ومن الواضح أن عائشة هي الأخرى كانت مستعدة لهذا الأمر. يقولون إن ثلاثة أشخاص قد هاجموها مرة وهي تقطع الحطب وحيدة في الجبل، أرادوا اختطافها.. إلا أنها رفعت البلطة وهجمت عليهم وطردتهم أمامها حتى البلدة. فعائشة كانت لا تخاف حتى من فوج مقاتلين. ولكنها عندما رأت (كوموش

دورسون) اختلط عليها الأمر.. فرمت البلطة من يدها وذهبت مع (كوموش دورسون). المطلعون على الأمر قالوا هذا الكلام. ولكن البنت غيرت أقوالها في المحكمة وقالت:

ـ هذا (الكوموش دورسون) أخذني إلى الجبل.

ولم تقل شيئاً آخر.

كان القاضي يستمع إلى الشهود.. فشرح الأول كيفية خطف كوموش دورسون لعائشة. بعد ذلك سأل القاضي يونس (كوموش دورسون):

ـ هل تريد أن تقول شيئاً؟

ولكن كوموش دورسون لم يرفع رأسه. كانت عيناه مسمرتين في الأرض.. وقال:

ـ إنه يكذب.. إنه يفتري..

غضب القاضي يونس غضباً شديداً.. ولكنه لم يظهر ذلك.. فقال بصوت ناعم:

ـ ولك كوموش دورسون.. ولماذا يفتري عليك؟

ـ يا سيدي، هذا الرجل حاقد علي لأنني سجلت اسم أخته في دفتري.

ـ وماذا يعني سجلتها على دفترك يا كوموش دورسون؟

ـ يعني ذلك أنني فعلت بأخته ذاك الشيء.

ـ طيب يا كوموش دورسون.. ليأت شاهد آخر.

دخل الشاهد الثاني إلى الصالون. هو الآخر شرح للقاضي كيفية خطف عائشة كما رأى الحادثة. كان الشاهد طفلاً في السادسة عشرة من عمره. توجه القاضي يونس إلى كوموش دورسون وسأله:

ـ وماذا ستقول بهذا الكلام؟

ـ أنا سجلت أم هذا الطفل في دفتري.. يعني فعلت بها نفس الشيء.. ولهذا السبب يعاديني.

قص الشاهد الثالث ما رآه أيضاً.. غضب القاضي يونس كثيراً ولكنه لم يظهر غضبه، وسأل كوموش دورسون:

ـ ها.. وماذا ستقول الآن يا كوموش دورسون؟

ـ إنه يكذب.. ويشهد ضدي لأنني سجلت خطيبته في دفتري، يعني فعلت لها ذاك الشيء.

جاء الشاهد الرابع.. أما كوموش دورسون لم يقبل بشهادته مطلقاً لأنه سجل اسم بنت أخيه على دفتره، أي أنه افتعل بها...!

تم الاستماع إلى تسعة شهود بين رجل وامرأة.. كان كوموش دورسون قد سجل لكل منهم إما اسم أخته، أو ابنته، أو عمته، أو خالته، أو بنت أخيه، أو بنت عمته.. على دفتره.. ولم يقبل بشهاداتهم.

أُدخل الشاهد العاشر إلى الصالون.. وكان عجوزاً يقف على رجليه بصعوبة بالغة.. وكانت لحيته ترتجف أثناء حديثه. سأل القاضي يونس العجوز:

ـ كم عمرك؟

قال العجوز:

ـ يقولون إنني في التسعين.. ولكن عمري ينوف على المائة.

كان العجوز قد رأى أيضاً خطف عائشة. فبدأ يشرح الحادثة كما رآها.. ولكن القاضي سأل العجوز:

ـ عندك أخت؟

ـ لا.

ـ عندك زوجة؟

ـ لا يا سيدي.

ـ عندك بنت؟

ـ ما عندي.

ـ عندك أم؟

ـ ماتت قبل خمسين عاماً.

ـ ليس لك أحد أبداً أليس كذلك؟ تعيش وحيداً؟

ـ صحيح يا سيدي لا أحد لي يا سيدي الحاكم.. منذ أربعين سنة أعيش وحيداً.

سُرَّ القاضي يونس كثيراً لجواب هذا العجوز.. والتفت فرحاً يسأل كوموش دورسون:

ـ أووي.. كوموش دورسون.. قل إنك سجلت اسم هذا الرجل على دفترك حتى أسجلك على دفتري.

شعر كوموش دورسون أنه سينام خمس سنوات في السجن، ولم يبق أمامه سوى مخرج واحد ينقذه من ورطته. فقال:

ـ بما أنني فعلت لعائشة ذاك الشيء. فأنا مستعد أن أتزوجها.

وهكذا أنقذ نفسه.

بعد ذلك لم يسجل كوموش دورسون أحداً على دفتره.. لأن دفتره قد امتلأ!

□ □ □

- ٢١ -

امتلأ الدفتر بالزوجات

الحقوقيون.. يعرفون جيداً أن في تركيا بلدتين خرّجتا منذ مئتي عام وحتى الآن مشاهير المحامين والقضاة والحكام والنواب العامين.. إحدى هاتين البلدتين على البحر الأبيض المتوسط، والأخرى على البحر الأسود.. وتخريج هاتين البلدتين الساحليتين للحقوقيين أصبحت عادة متبعة.

الحادثة التي أرويها لكم جرت في البلدة الواقعة على ساحل البحر الأسود. القاضي يونس من سكان تلك البلدة. حقوقي كأهله وأجداده الأقدمين. عمل حاكماً في مناطق عدة كثيرة من تركيا. وعندما اقترب موعد إحالته على التقاعد.. أراد أن يتم ما تبقى له من خدمته في بلدته.. بين أهله وأقربائه. ومضى عليه الآن سبع سنوات يعمل قاضياً في محكمة الجزاء في بلدته. نصف سكان البلدة هم من أقرباء القاضي يونس من قريب أو بعيد. ولكن هذا القاضي لا يفرق بين أخيه أو أبيه وبين أي غريب عندما يقف أمامه، إن كان مذنباً. خاصة أن هذه العائلة تعرف منذ أمد بعيد بالاستقامة.

وللقاضي يونس ابن عم عم أبيه.. شاب يدعى (كوموش دورسوف). وهذا الشاب شقي جداً.. جعل سكان بلدته وسبعة بلدان أُخَر يصرخون ويهتفون: «مدد يا الله». كان بلاء حقيقياً للمنطقة بكل معنى الكلمة.. لقبه سكان بلدته حسب لهجتهم المحلية «كوموش دروسين» (ملاحظة: في هذه القصة يتعرض الكاتب إلى لهجة سكان البحر الأسود المشهورين جداً

في لهجتهم وطريقة تحدثهم المناقض بعض الشيء لباقي اللهجات في تركيا. و(كوموش دورسون) هذا أحيل أمام القاضي يونس خلال خدمته البالغة سبعة أعوام أكثر من سبعين مرة. وجرائمه كلها متعلقة باختطاف (تشريد) النساء والفتيات.. والعراك من أجلهن. لا يعرف الجمود مطلقاً.. إنه حشري بكل معنى الكلمة.

وعندما جاء القاضي يونس كرئيس لمحكمة الجزاء في البلدة لم يسعد مجيئه ذلك الشاب الشاذ. فلو جاء مكانه قاض غريب لجادله كوموش دورسون كيفما يريد.. ودافع عن نفسه على طريقته.. ولكنه أمام القاضي يونس يتجمد.. ويحترمه.. لأنه قريبه ومن عائلته، ويناديه عمي. ومهما كانت درجة القرابة بعيدة عندهم، فاحترام الكبير في هذه البلدة لا يوصف.. ويعد والد جد جد القاضي يونس أخاً لجد جد والد كوموش دورسون.. أي أن القرابة تمتد إلى ما قبل مئات السنين.. ومع هذا فكوموش دورسون لم ينس هذه القرابة. ولذلك يخاف منه، ليس لأنه قاضٍ، بل لأنه بمثابة عم له. إذن هو عم وقاض.. وشديد في منتهى الشدة.. والحال هذه.. هل يتجاسر ويفتح فاه عندما يقف أمامه؟

والقاضي يونس.. لم تتغير طريقة حديثه أو لهجته بعد كل هذه الدراسة المتواصلة في الحقوق أو الاختصاصات الأخرى.. ظل لسانه هكذا.. بلهجة بلدته.. كباقي أبناء البلدة.. بلهجة البحر الأسود. عندما شاهد كوموش دورسون أمامه ضرب الكرسي بيديه وقال:

ـ أوي كوموش دورسين.. مرة أخرى تقف أمامي.

وعندما يقول ذلك.. تتمزق أشرعة (كوموش دورسون) وتغرق.. والموت عنده أسهل عليه من المثول أمام عمه القاضي يونس.

طبعاً.. ينكر كوموش دورسون كل الاتهامات الموجهة إليه ويقول: «إنه افتراء».

والحقيقة أن القاضي يونس.. يحب هذا الشاب كثيراً.. يحبه ولكنه لا يظهر له هذا الحب.. كما أن حبه هذا لا يقلل أبداً من العقوبة التي يستحقها. آخر مرة.. عندما مثل كوموش دورسون أمام القاضي وعاقبه بثلاثة أشهر حبس.. قال له:

- انظر إلي جيداً يا كوموش دورسين.. أتمنى ألا تمثل أمامي مرة أخرى.

ثم أخذه من أذنه بعد أن فركها وقال له:

- سأحرق روحك.. سأكون لك عماً كما تريد.. سأعدمك وأخلصك من نفسك. انتبه وإياك أن تكرر أعمالك.

ولكن هل يتوقف (كوموش دورسون)؟ هل الأمر في يده؟

لقد حلف اليمين المعظم أكثر من مرة أنه لن يقف مرة أخرى أمام عمه القاضي.. ولكنه عندما شاهد عائشة وحيدة في الجبل تقطع الحطب.. نسي يمينه وشماله.. ولم يستطع أن يتمالك نفسه.. فعيون (كوموش دورسون) لم تعد ترى لا القاضي، ولا العم، ولا السجن.. ولم يعد يرى شيئاً أبداً.

جريمته هذه المرة كبيرة.. لأنه خطف عائشة وهي تقطع الحطب في الجبل.. وبقي معها ثلاثة أيام بعيداً عن أعين الناس. ومن الواضح أن عائشة هي الأخرى كانت مستعدة لهذا الأمر. يقولون إن ثلاثة أشخاص قد هاجموها مرة وهي تقطع الحطب وحيدة في الجبل، أرادوا اختطافها.. إلا أنها رفعت البلطة وهجمت عليهم وطردتهم أمامها حتى البلدة. فعائشة كانت لا تخاف حتى من فوج مقاتلين. ولكنها عندما رأت (كوموش دورسون) اختلط عليها الأمر.. فرمت البلطة من يدها وذهبت مع (كوموش دورسون). المطلعون على الأمر قالوا هذا الكلام. ولكن البنت غيرت أقوالها في المحكمة وقالت:

- هذا (الكوموش دورسون) أخذني إلى الجبل.

ولم تقل شيئاً آخر.

كان القاضي يستمع إلى الشهود.. فشرح الأول كيفية خطف كوموش دورسون لعائشة. بعد ذلك سأل القاضي يونس (كوموش دورسون):

ـ هل تريد أن تقول شيئاً؟

ولكن كوموش دورسون لم يرفع رأسه. كانت عيناه مسمرتين في الأرض.. وقال:

ـ إنه يكذب.. إنه يفتري..

غضب القاضي يونس غضباً شديداً.. ولكنه لم يظهر ذلك.. فقال بصوت ناعم:

ـ ولك كوموش دورسون.. ولماذا يفتري عليك؟

ـ يا سيدي، هذا الرجل حاقد علي لأنني سجلت اسم أخته في دفتري.

ـ وماذا يعني سجلتها على دفترك يا كوموش دورسون؟

ـ يعني ذلك أنني فعلت بأخته ذاك الشيء.

ـ طيب يا كوموش دورسون.. ليأت شاهد آخر.

دخل الشاهد الثاني إلى الصالون. هو الآخر شرح للقاضي كيفية خطف عائشة كما رأى الحادثة. كان الشاهد طفلاً في السادسة عشرة من عمره. توجه القاضي يونس إلى كوموش دورسون وسأله:

ـ وماذا ستقول بهذا الكلام؟

ـ أنا سجلت أم هذا الطفل في دفتري.. يعني فعلت بها نفس الشيء.. ولهذا السبب يعاديني.

قص الشاهد الثالث ما رآه أيضاً.. غضب القاضي يونس كثيراً ولكنه

لم يظهر غضبه، وسأل كوموش دورسون:

ـ ها.. وماذا ستقول الآن يا كوموش دورسون؟

ـ إنه يكذب.. ويشهد ضدي لأنني سجلت خطيبته في دفتري، يعني فعلت لها ذاك الشيء.

جاء الشاهد الرابع.. أما كوموش دورسون لم يقبل بشهادته مطلقاً لأنه سجل اسم بنت أخيه على دفتره، أي أنه افتعل بها...!

تم الاستماع إلى تسعة شهود بين رجل وامرأة.. كان كوموش دورسون قد سجل لكل منهم إما اسم أخته، أو ابنته، أو عمته، أو خالته، أو بنت أخيه، أو بنت عمته.. على دفتره.. ولم يقبل بشهاداتهم.

أُدخل الشاهد العاشر إلى الصالون.. وكان عجوزاً يقف على رجليه بصعوبة بالغة.. وكانت لحيته ترتجف أثناء حديثه. سأل القاضي يونس العجوز:

ـ كم عمرك؟

قال العجوز:

ـ يقولون إنني في التسعين.. ولكن عمري ينوف على المائة.

كان العجوز قد رأى أيضاً خطف عائشة. فبدأ يشرح الحادثة كما رآها.. ولكن القاضي سأل العجوز:

ـ عندك أخت؟

ـ لا.

ـ عندك زوجة؟

ـ لا يا سيدي.

ـ عندك بنت؟

ـ ما عندي.

ـ عندك أم؟

ـ ماتت قبل خمسين عاماً.

ـ ليس لك أحد أبداً أليس كذلك؟ تعيش وحيداً؟

ـ صحيح يا سيدي لا أحد لي يا سيدي الحاكم.. منذ أربعين سنة أعيش وحيداً.

سُرَّ القاضي يونس كثيراً لجواب هذا العجوز.. والتفت فرحاً يسأل كوموش دورسون:

ـ أووي.. كوموش دورسون.. قل إنك سجلت اسم هذا الرجل على دفترك حتى أسجلك على دفتري.

شعر كوموش دورسون أنه سينام خمس سنوات في السجن، ولم يبق أمامه سوى مخرج واحد ينقذه من ورطته. فقال:

ـ بما أنني فعلت لعائشة ذاك الشيء. فأنا مستعد أن أتزوجها.

وهكذا أنقذ نفسه.

بعد ذلك لم يسجل كوموش دورسون أحداً على دفتره.. لأن دفتره قد امتلأ!

□ □ □

المحتويات

وحش طوروس

يتربع بعض كتاب الطرائف واللطائف، كالجمال في زوايا دور الصحف والمجلات. وقد اعتاد جمهور القراء على كتاباتهم، كما اعتاد الكتاب على قرّائهم. لو كتب أحدهم في أحد الأيام أن دجاجة ولدت أرنباً، وأن ذبابة ولدت بقرة، فإن أصحاب الدور ينتظرون منهم أن يكتبوا في الأيام التالية: أن الدجاجة أنجبت فيلاً والذبابة حمارً الخ... لإشباع فضول القراء وزيادة المبيعات.

وعندما ارتفعت عمليات سرقة الرواتب وحصالات الهواتف، لم يجد أهل الخبرة حلاً سوى التعاقد مع اللصوص برواتب عالية.

كما وجدت الفتيات أنهن لن يصبحن جميلات إلا باستعمال زيت التجميل الذي شغلت دعايته جميع وسائل الإعلام والمستحضر من ماء الخيار المحمض، ومعجون الحلزون، والملفوف العفن.

أخيراً عندما سمع وحش طوروس بالقاء القبض على صعلوك حمل اسمه، سارع إلى تسليم نفسه للعدالة. لكن الصعلوك رفض التنازل عن وحشيته لأنها أعجبته كثيراً.

مجموعة من الأقاصيص الذاخرة باللطائف والطرائف.

الناشر

السعر ١٥٠ ل.س